الذبـــاب الأبـيـض

روايـــة

محـــمد "التركي" توفـــيق

سلسلة "نسور الأدب"

اسم الكتاب : الذباب الأبيض
المؤلــف : محمد "التركي" توفيق
لوحة الغلاف : "النسر"
الإخراج الفني : أحمد السرساوي
الإشراف العام : محمد الشحات محمد
رقــم إيداع : ٤٣٨٢ / ٢٠٠٨



٠٠٢٠١٠٨٢٥١٦٨٣ - ٠٠٢٠٢٢٩٩٣٣٨٧

إهـــداء

إلي كل من ساند قلمي ، وآزره ...

إلي كل من أقبل علي إبداعي ، وتجاوب معه ...

إلي كل هؤلاء من رفاق صالونات ،

ونواد الأدب بكل البقاع ...

أهدي كتابي ...

محمد توفيق عبد الحافظ،،،

مقـــــدمة

قارئ نهم أنا ... تشدني الرواية، والقصة القصيرة، والأقصوصة ... بعض نواحي الأدب الأخري تأخذ بلبي ... أسعد لوقوعي علي نقد لعمل إبداعي قرأته ... أقارن بين ما انطبع بذهني عن العمل وما دونه يراع الناقد ... تتفتح عيناي علي نواح فنية غفلت عنها عند قراءة النص، فأرجع إليه لأقرر في أي صف أقف ... الناقد، أم المبدع.

أميل كثيراً إلي ما كتبته الشاعرة "ماريان مور" عن مراحل القصة:

" إذا لم تستطع أن تشد انتباه القارئ منذ البداية، وتجعله يتعلق بالقصة فلا فائدة من الاستمرار "

أحني هامتي احتراماً للدكتور / أحمد هيكل : " الأدب فن جميل أداته الكلمة ، وهو يتفق مع كل الفنون ، ولكنه يختلف عنها في أن أداته الكلمة ... لها دلالة تفهم مع ما قد يكون للكلمة من إيحاءات، ورموز ... إذ ليس الأدب مجرد كلام جميل محكم العبارة ، وإنما هو تعبير جميل بالكلمات عن تجربة صادقة الشعور قادرة علي التجاوز للآخرين ".

أرفع يدي تحية وتعظيماً لسيد القصة القصيرة أنطون تشيخوف:

" لا يجوز للكاتب أن يجلس بين أربعة جدران لكي يستولد المواضيع من ذاته ، وإنما عليه أن يري الحياة ، والناس ، وأن يلمس الواقع ،

وأن يستمع إلي أحاديث القوم كما هي لا كما يتخيلها ... أن يسعي دائماً إلي الأسفار ، ويحتك بمختلف العناصر ، والشعوب ".

يلذ لي مقارنة ما أكتبه بمستواه الفني والأدبي ، و التكنيكي بما اقرأ ...

أجدني أحياناً أتساءل عندما يروق لي إبداع :

" كيف أمكنني الكتابة بهذه السلاسة ، والعمق؟ "

... وأحيانا أمزق ما كتبته عندما لا يروق لي.

أتمني ألاّ يكون ما كتبته (الذباب الأبيض) لسان حال المثل الشعبي :

" القرد في عين أمه غزال "

المؤلف،،،

ابن الشرق الأسمر

لا يوجد بمحطة الحافلات سواي ... يكاد الشارع يخلو إلا مني ... ألمح البعض هناك عند تقاطع الطرق المتعامدة في سعي جاد ، لا تلبث أن تحجبهم عني الأبنية المنتصبة بطرز سلافية عتيقة ... تذكرني هذه الأبنية ببطرس الأول ، باعث النهضة الحديثة في أوصال روسيا القيصرية ... حالة طقس تنبئ بهطول أمطار ... سحب قاتمة كثيفة بالأفق تنوء بحملها فتوشك أن تهوي ... تدفع بها الرياح فتسرع مبتعدة لتخلفها أخري أشد قتامة.

أتأمل بعض المارة عن بعد يهرولون، حتي إذا اقتربوا من موقعي يمضون في طريقهم بملابس واقية من المطر وأحذية طويلة الرقبة أفتقدها ... ليتني تزودت بمظلة تدفع عني البلل ... نظرة إلي سقف محطة الحافلات أسكنت قلقي إلي حين.

نظرت إلي ساعتي ، وتلفتُ حولي ... خلفي حديقة صغيرة تخلت فيها الأشجار عن أوراقها ، وتناثرت تلك الذهبية فكست أرض الحديقة ، ومساحة من شارع "استومتروفكا" ببساط مزركش ... بعض برك صغيرة تخلفت عن سابق هطول أمطار في أماكن متفرقة علي الطوار ، وأسفلت الشارع.

أخذت سرعة الرياح الباردة تشتد ، فرفعت ياقة معطفي ، وثَبَّتُّ قبعتي جيدا فوق رأسي ... دسست يدي داخل جيوب المعطف ، وخطوت بضع خطوات علي الطوار ... سحبت نفسا من لفافة تبغ تدلت من بين شفتي ، ثم لفظتها مع حلقات الدخان.

مرت حافلة أخري ، وانصرف الركاب، ولم يعرني أحدهم التفاتا ... رشاش مياه يتدافع إلي الجوانب إثر مروق السيارات، تعود بعدها أوراق الأشجار إلي تجمعها مرة أخري فوق سطح المياه الباركة.

مرة أخري نظرت إلي ساعتي ... أعتقد أنها لن تحضر ، فقد انصرمت عشر دقائق علي موعدنا ... هناك تعبير متداول بين الفتيات الروسيات حين يضربن صفحا عن موعد غرامي مع شاب، بأن تقول إحداهن :

" لقد علقت حول رقبته إبريق الشاي "

تعبير غريب الوقع علي الأذن المصرية ... وأيا كان الأمر ، فإني أري نتاليا علقت إبريق شاي حول رقبتي.

أخذت قطرات المطر تتساقط علي شكل رذاذ خفيف ... راودتني فكرة المضي إلي مكان دافئ ، وطرح معاناة ممضة توحي بألأ طائل من ورائها ... و ... أبي طيف نتاليا إلاّ أن يكبلني إلي موضعي تحت مظلة الحافلات ، فلعل وعسي .

نال مني ملل الانتظار، وكأنما مؤشري الساعة استناما إلي موضعهما فتباطأ عمدا. انصرم خمس عشر دقيقة علي موعدنا ، فتركت موقعي متخاذلا في كسل وفتور ... خيبة أمل كبيرة غير متوقعة أطاحت بكل ما كنت أطمع فيه ، وأخطط له ... انحنت هامتي المتطلعة ، وتهدل كتفاي ، وعقدت يدي خلف ظهري في مشية من فقد قنصاً كان بين طيات شباكه فمضي محزونا كسيف الوجه.

إيه يا ناتاليا ... لا بأس ... ربما كان الطقس الملوم ، وربما لم تأت لمسلكي معك في اللقاء الأول ... فقد داعبت شفتاي ثغرك ، وتلمست أناملي نتوء صدرك ، وطوقت خصرك لأضمك إلي أحضاني.

قد تقول أنني جرئ ... وقد تتعدي هذا لتقول أنها ليست جرأة ، ولكنها وقاحة ، وسوء أدب!

لك مطلق الحرية في نعتي بما تشاء ، فغدا يوم آخر.

سأمضي إلي بحر " برانتس " ، وربما منه إلي المحيط ... حقيقة لا يهمني في شئ أن أذهب إلي أي بقعة من العالم ... قد أودع خطوط العرض العليا من الكرة الأرضية ، لأعيش في حيز خطوط عرض أخري ... أغادر الدائرة القطبية ، وما حولها ... شبه جزيرة كولا ، و"مورمانسك" ... مدينة الشتاء ، وعتمة الليل ... أيضا أشعة الشمس الذهبية في منتصف ليالي الصيف ... ثلاثة أشهر دون ليل صيفا ، يقابلهم ثلاثة أشهر دون شمس شتاءً.

أرجو ألا تتسرع في حكمك علي شخصي البسيط ، فنحن بأقصي شمال روسيا... بمدينة البحر، والسفن، والأسماك، التي لا يكر بها الليل القطبي حيث دائماً الحانات، والفتيات الجميلات ... الضحكات الماجنة من الأفواه التي عبّت حتي الثمالة... القبلات المختلسة، والمغتصبة أيضاً... مصادمات البحارة في شراسة، وعنف.

سأدع كل هذا لألحق بسفينة الصيد " نافيجاتر"، وهي تعني الملاّح ... قد أفكر في كل تلك المعاني ... الجرأة ، والوقاحة ، وغيرها خلال أويقات الراحة التي نعدها باللحظات ، فصيد الأسماك عمل أكثر من شاق ... يتواجد الحافز دائماً ما كنا علي سطح الماء ... جهاز كشف تجمعات الأسماك يدفعنا للعمل ... يغرينا ... ننزل بالشباك إلي القاع لنظفر بالأسماك البعيدة ، أو نبدلها بأخرى كي نقتنص التي لا تبعد سوي أمتار معدودة ... نغير الأثقال ، والعوامات ... نخرز أحبال الصلب ... نرتق الشباك الممزقة ... نصنف الأسماك حسب أحجامها ... و ...

اصطدمت بشخص ، فلملمت شتات فكري ... غمغم الرجل بكلمات مضغوطة قد تكون اعتذارا ، وقد تكون سبابة أيضا.

كنت أسير في خط متعرج لتفادي تجمعات الأمطار التي بدأت تهطل بغزارة ، حتي ابتل حذائي ، وجزء من سروالي الطويل ، وقد التصق بساقي بينما قطرات أخري تنزلق علي المعطف.

مَرَّ أحدهم مع فتاته بجواري ، ونظرا تجاهي ، وتبادلا ضحكة قصيرة ، فقد ظناني ثملا.

عرجت إلي الـ " رستوران " أخيرا ... ركلت الباب الخارجي بقدمي ، ودخلت.

خلعت قبعتي، ونفضت ما علق بها من ماء ... دفعت بها ، وكذا المعطف إلي سيدة بدينة فعلقتهما علي مشجب ، وأعطتني قطعة معدنية ذات رقم ألقيت بها في جيب سترتي ، ولم أهتم بالسروال.

ارتقيت درجتي سلم قبل أن أنعطف يسارا في طرقة قصيرة ... هناك أكثر من بحار ثمال يمنعهم حارس في غلظة من الدخول ... نفحته " دولارا" ... انتفخت أوداجه في التو ، ولمعت عيناه ، واتسعت حدقتاهما...

أوسع لي بين البحارة منحيا إياهم جانبا ... انحني باحترام مبالغ فيه وهو يفتح الباب ليسمح لي بالدخول :

- تفضل أيها السيد المبجل.

تطيش عقول المواطنين السوفيت لرؤية ورقة البنكنوت الخضراء. أثق تماما أن الحارس السوفيتي سيحتفظ بالورقة ما ترددت أنفاسه بين جنبيه ... سيجعل منها

أيقونة يحج إليها من وقت لآخر ... لن يفرّط فيها أو يدعها تغيب عنه ليزهو بها بين أهله وأقرانه ومعارفه ... يتعالي المواطن السوفيتي علي أصدقائه المنبهرين بامتلاكه أي سلعة أجنبية مهما بلغت ضآلتها ، وتفاهتها ... قطعة لبان تركية ، قلم صيني "وينج سونج" ، آلة حلاقة يدوية مزدوجة الشفرات في اتجاه واحد ، طقم ملابس داخلية حريمي مصري ، سروال "جينز " أمريكي ، حتي الكيس النايلون عليه دعاية لفافات تبغ "مارلبورو".

هززت رأسي وأنا أخطو إلي الداخل لاعنا الحرمان ، والانغلاق ، ومن قبل ديكتاتورية الحكام المتسلطة.

حاول أحد البحارة التسلل خلفي ، فنهره الحارس ، وأغلظ له في قسوة ... سمعت سبابا مقذعا لم آبه له.

توقفت بالداخل برهة أقلب نظراتي بين رواد الـ "رستوران" المكتظين بالداخل.. لمبات كهربائية صغيرة تتبادل الإضاءة في رتابة، وتعاقب ممل من ناحية منصَّة قليلة الارتفاع فوقها ثلاثة عازفين يرسلون نغمات آلاتهم في غير حماس أو اهتمام. بحار ثمل يحتضن فتاة بدعوى مراقصتها، ويحاول تقبيلها في أي موضع تقع عليه شفتاه ... تجاهد الفتاة للتخلص منه في لباقة مراعية عدم إثارة غضبة ...

دخان لفائف التبغ المحترقة تشكل ما يشبه ستارة ضبابية خلال الضوء الشاحب ... ضقت بالجو المكتوم ، ورائحة الأنفاس المتزاحمة ، وقلة الأكسجين ... للحظة فكرت بالنكوص ، وترك المكان الكئيب ... لمحت لودميلا جريجورفنا تنساب في خفة بين الموائد في زيها المتميز ... سرت تجاهها ، وقابلتني مرحبة في مرح ، وأفردت لي مكانا جلست إليه وحيداً... غابت عني قليلا لتعود ، ومعها زجاجة "كونياك أرمني".

قالت لودا ذات لقاء سابق :

" إنهم يقولون أن للبحار زوجة بكل ميناء تطأه قدماه ... ولكني أقول أن لزوجة البحار عشيق كل ليلة "

... و ... قدَّرت صراحتها .

إيَاك أن تقول بدورك :

" إنها ليست صراحة ، ولكنه انحلال خلقي".

...فهو الواقع بلا أدني " رتوش".

كان حديثها معي وقتها ، دعوة لزيارتها بمنزلها ، فزوجها القبطان بالبحر ، ولكني رفضت.

عادت لودا بأطباق من " كافيار" ، وخيار مملح ، وخبز وضعتهم علي المائدة ، وغمزت بعينها في مرح.

أدرك ما تعنين يا جميلتي .. قد ألبي دعوتك لأشاطرك الفراش هذه الليلة ، فهي آخر ليالي بـ "مورمانسك" ... أيضاً أشعر بتعاسة ، ربما تكون ناتاليا مبعثها.

طار خيالي إليها ... قاربت العشرين ... تحس معها بنضج الأنثي وخفر الفتاة ... قوامها الممشوق ... نهداها ... شفتاها ... ضحكاتها ... و ...

تلقيت لطمة خفيفة علي ظهري ... إنها لودا ... امرأة مثيرة تحرص علي أناقتها ، وفتنتها ... تعرف كيف تجذب الرجال ، وتأسرهم ، فهي مرغوبة أبداً كأنثي جميلة ذات تجربة.

لعلها في مثل سني ، أو أكبر قليلا ... قد تخمن بما يدور في ذهني ، فهي تدرك ولعي بالشقراوات ...رأت ناتاليا معي ذلك اليوم.

يغص المكان بالبحارة ، ولودميلا مع زميلة لها يلبيان طلباتهم ، ويعرفان كيف تتعاملان معهم.

افتقدت طابع مرح أتحلي به لتشملني حالة لا مبالاة ، واستخفاف استحوذت علي تصرفاتي فغدوت أضيق بتوافه الأمور.

توجد بالقاعة كثير من الفتيات أغلبهن يدخن في شراهة ... خطر ببالي أن أغادر المكان.

لم أكن لمست الزجاجة بعد ، وما ساورتني رغبة في تناول طعام ... اقتربت إحدى الفتيات مني في مشية تقطر أنوثة ... أسرفت في زينتها ، وإن تناسبت وتقاطيع وجهها ، وشعرها المصفف في عناية بالغة ... طلبت مراقصتها في إغراء مثير ... أشرت إليها أن تجلس ، فامتثلت دون اعتراض.

جلست مواجهة لي ، ووضعت يديها فوق حافة المائدة ضامة عضديها ليبرز شطر من نهديها من خلال فتحة الفستان الواسعة في دعوة صارخة لإتيان أكُل ... ابتسامة عريضة ، وشفتان مكتنزتان ، وأسنان بيضاء ناصعة متناسقة شكلوا خجلا مصطنعاً يوحي ببراءة تستغلها للإيقاع براغبى متعة عارضة.

أعرف هذه النوعية من الفتيات ، وأرثي لهن ... تأملتها بعين فاحصة ، وهي مازالت تحافظ علي ابتسامتها المغرية ... خلت أن نظراتي المتعمقة أوحت لها بأني لست صيدا سهلا ، وكثيرا ما التقيت بمثيلاتها ... لذا طرأ علي جلستها ، وابتسامتها شيء من تمهل وتقدير انتظارا لخطوتي التالية.

امتدت يدي إلي الزجاجة، وفضضت غطاءها في كسل واضح.. أفرغت لها في كأس، وملأت آخر.. تأكد لها علي وجه التقريب ما تَكَوّنَ لديها من انطباع عني.

أدلت يديها من فوق حافة المائدة ، واقتربت بكرسيها مني ، ومالت هامسة :

- لدي شقة صغيرة هادئة إن لم يرق لك هذا المكان الكئيب.

بادلتها ابتسامة مشجعة، ولمست وجنتها بأصبعي في رقة، ثم أشرت إلي كأسها.

ـ لا عليك يا فتاتي ، فأنا جد سعيد بمجالستك.

أشعلت لها لفافة تبغ أمريكية ، ولنفسي أخري ... أطرت مسلكي ، ودعتني بـ " جنتل مان " ... تحدثت كثيرا ، وأفاضت ، وكيف أن هؤلاء البحارة الأوغاد لا يدفعون إلاّ النزر اليسير لقاء متعتهم ... ضحكت بصوت عال وهي تروي كيف تحثهم علي الإفراط في احتساء الـ " فودكا " القذرة ليفقدوا وعيهم ، ومن ثم تستولي علي كل ما معهم.

وافتنا لودا ، وجلست معنا برهة ، فقد كانت كلتاهما تعرف الأخري جيدا ... احتست لودا والفتاة كأساً ، وتناولا قليلا من طعام ... لم أصب شيئاً وظل كأسي كما هو ... اكتفيت بمتعة تدخين لفائف تبغ في عقد مقارنة بين الفتاتين صبّت في صالح لودميلا ، ومالت نفسي لها.

حرصت لودا قبل أن تتركنا علي رسم قبلة في الهواء ، وإرسالها ناحيتي علي أطراف أناملها... تناولت الأخري كأسا ثانية ، وأشعلت لها لفافة تبغ ، وأصرت أن تقبلني لتنصرف متصنعة الترنح لإغراء آخرين.

انتهت لودا من عملها ، ورأيت بديلتها بمئزر أبيض تنظر تجاهي ، وتحييني بإيماءة مقتضبة.

خطوت بضع خطوات متلكئة خارج الـ " رستوران " كي تلحق بي لودا ... كان المطر قد كف عن انهماره وراودتني فكرة المضي توا إلي السفينة.

سمعت وقع خطوات أنثوية سريعة تقترب مني لم آبه لها ... أحاطتني لودميلا بساعديها من الخلف ، ثم سارت إلي جواري في حبور ... تأبطت ذراعي لكأنما تتأكد من وجودي إلي جوارها ، فهي ترغب أن تقضي ليلتها بين أحضان ابن الشرق الأسمر ... و ... مضيت معها.

نافيجاتــر

كنت علي ظهر السفينة في التاسعة صباحا ... تلقاني "جينا" العجوز رئيس عمليات الصيد بلعناته، فأرسلني إلي الشيطان، وإلي الجحيم... لطمته علي مؤخرته، وأنا أهرول لأعد نفسي للعمل... لقيني القبطان مع أحد مساعديه... حياني مبتسماً ... كان قد رآني بالأمس عند مغادرتي الـ "رستوران" مع لودا.

دوّي جرس كهربي استعدادا للخروج من الميناء ... لزمت الجانب الأيمن ، وبحارين آخرين ... أطلقت السفينة صفيرا أجشاً أشبه بالنعيق ، فبدأنا بفك أحبال المرسي وطيها علي طنابير حلزونية ... قعقع جنزير الهلب في صوت مميز أثناء رفعه ... عملت محركات الدفع ، واهتزت السفينة هزة خفيفة لتبتعد عن الرصيف ببطء ... تكاد تلمس الصرامة والتجهم علي أوجه البحارة ... و ... من هناك علي الرصيف من بين جموع المودعين تسمع لعنات زملائهم وهم يتمنون لهم حظا طيبا.

دهشت تماماً عندما لمحت لودا بين فتيات ، وسيدات يلوحن بمناديلهن ... كانت تلوح لي بإيشارب أحمر ، وتهتف باسمي ... لم أملك إلاّ أن ألوح لها بدوري ، وأنا أبتسم في أسي ... لا أدري لماذا؟!!

ركزت بصري تجاه إيشارب لودميلا الأحمر يتراقص في خفقات مختلجة من جهة لأخرى ... كدت ألاّ أصدق عيني ، وقد جشمت نفسها عناء المجيء إلي الميناء لوداعي ... تري أن معرفتي بها لم تزد عن أيام معدودات ... أأكون قد عنيت لها شأناً له معني ؟!! ... أتذكر همساتها بين أحضاني ، وهي تتمسح بي كقطة لاذت بركن دافئ في ليلة باردة :

" لقد كانت فتاة الـ " رستوران " محقة حين دعتك بـ " جنتل مان " ... إن لها رؤية خارقة في سبر غور معادن الرجال ... حقيقة أتمني تواجدي إلي جوارك ما حييت ، وألاّ أفترق عنك أبدا ".

راحت بعدها تلثم كل شبر في جسدي بحميمية صادقة لم أصادفها من قبل.

بدأ عقد المودعين ينفرط كرذاذ متطاير ، وتضاءلت ملامح الميناء ... لمعت هياكل الأبنية الحديثة كأنما تتركنا مودعة ، ونحن نتجه إلي عرض البحر إلي أن غابت عني آخر الأمر ... رحلة إبحار أشترك فيها كعضو فعّال ... أهي لمجرد الوقوف علي جديد يبهرني؟ ... أو أنها خطوة جادة نحو مستقبل مجهول ؟ ...

يجب أن أوطن نفسي لتوقع أتراح، بنفس القدر الذي آمله من أفراح.

هكذا راحت نفسي تحدثني ، وأنا أتأمل الزبد الذي تخلفه السفينة مشكلاً مساراً عريضا من فقاعات بيضاء فوّارة متقلبة علي صفحة البحر الأزرق.

إيه أيها البحر ... إنك عظيم مهول ...

أحبك ، وأخافك ... أعشقك ، وأتمني لو هربت منك ...

أعرف أنك الحياة بعينها ... أنت المطر ، وأنت الشجر ...

مياهك اللا متناهية المالحة ، والرشاش الذي يغمرني أحيانا فأتفل لأي سبب لا ضيقا ، وتبرما ... ولكن هكذا ، فأنا إنسان بسيط ، وأنت البحر الكبير.

كم أحبك ، وأحترمك حين تثور ... حين تكاد أمواجك تقتلعني ، وتقذف بي من فوق قلعتي المتحركة ...

كم أخافك، وأرهبك وأنت ساكن هادئ، لأني أعرف ثورتك، وغضبك ...

أخاف تلك الأغنية التي يرددها البحارة :

إن البحار لا يؤمن بإله أو شيطان ...

ولكن يعتقد في تميمته البسيطة ...

إننا أصدقاء متراصون كالحائط ...

وسفينتنا هي بيتنا العائلي ...

ترعبني معاني الكلمات ، وأنا أسمعهم يرددونها من حين لآخر ... أعرف مغزاها ، وأدرك تماما ما يعانيه البحارة من تمزق نفسي.

لقد وقعت الباخرة " تيتانك " بين براثن المارد الأبيض الذي لا يرحم ، وراح المئات ضحية حادثة غير متوقعة علي الإطلاق ... أيمكن أن نصدم بشيء علي هذا النحو؟...

أسيقدر لنا عودة أخري إلي أمنا الأرض وأديمها؟ ...

ألن تحتوينا قبور متحركة ، هي بطون الأسماك ؟ ...

... أفقت من تأملاتي علي صوت جينا :

- أنت أيها النسر الصغير ... مالك لا تحوم هنا ... تعال

انسقت خلفه ، وهو يتواثب بحيوية شاب في العشرينات.

- إيه ... جينا ...

لم يلتفت ناحيتي ، وعقب وهو مازال علي تواثبه :

- تكلم مباشرة .

قلت وأنا أحاول اللحاق به :

- هل معنا حسناوات علي ظهر السفينة ؟

أجاب أيضا دون أن يلتفت إليَ :

- وماذا أيضا ؟

ضقت بعدم اكتراثه لسؤالي وأردفت حانقا :

- لا تكن كاليهودي اللئيم فترد علي السؤال بسؤال.

في استخفاف من نفض يده من أمر تافه ردد :

- ليس هذا من شأنك ... هيا اذهب ، وأعتلي الونش العلوي الأيمن كي نرفع كيس الشباك.

قلت في غيظ ردا علي استخفافه بي :

- تبا لك من عجوز خَرِف.

بنفس حالة الاستخفاف زمجر معقبا :

- سأقلم مخالبك يوما أيها النسر اللعين.

مضيت في التو لاعتلاء متن الونش كما حدد جينا ... قلت وأنا أقبض علي عوارض السلم في صعود المتمكن :

- أي أكياس الجر سنستخدمها يا جينا ؟

رد وهو يوجه تعليماته إلي باقي أفراد طاقم الصيد :

- كيس الجر القاعي .

كنت أتخيل أننا سنستخدم كيس الجر السطحي ، وإن جهلت منطقة الصيد ، ونوعية السمكة :

- إذن أي منطقة صيد هي وجهتنا؟

هنا نظر إلي حانقا :

- إنها " نوفايا زيملا "...

ثم عقد قبضته ، ولوح بها تجاهي في غيظ :

- هيا باشر عملك ، ولا تكثر من الأسئلة كعجائز النسوة.

قهقهت بصوت لا يصل إلي سمعه حتي لا أثير غضبه ... اعتليت مقعدي من الونش ، وحركت الروافع ، وبدأنا نفرد كيس الجر القاعي مع باقي أفراد طاقم الصيد.

* * * * *

لودميلا جريجورفنا

" قد هجرنا الرجل ، وتعلق بامرأة أخري "

طالما رددت أمي هذه العبارة أمامي ... لم أر هذا الرجل أبداً – أبي – وما احتفظت أمي بصورة له ... أيضاً ما اهتممت بأمره، أو حفلت بوجوده إن كان علي ظهر الأرض... لا أتوقع رؤيته يوماً ، فهو بالنسبة لي نكرة..لا شيء ...كنت أحمل اسمه حتي وقت قريب ... بالينا فسيفلودفنا ... كرهت اسم بالينا هذا ، فهو اسم أمه ... و ... حين اعتمدت علي نفسي غيرته إلي لودميلا جريجورفنا.

كانت أمي عاملة نظافة بحانة القرية الحكومية الوحيدة.. لم تتلق قدراً من تعليم.. أجبرها مسئولي لجنة الحزب الشيوعي علي تعلم القراءة والكتابة، وإلاّ فقدت عملها.. استغل مدير الحانة حالة مادية متردية في عدم وجود زوج، فاتخذ منها عشيقة لا تكلفه كثيراً.

دعاني أهل القرية " بالينا سرجيفنا " نكاية في عشيق أمي" سرجي بيفا فاروف" ، حتى التصق الإسم بي ... كرهت الرجل منذ طفولتي ... نظراته المخيفة جعلتني دائمة الهرب منه ... أنزوي في ركن ... أقبع تحت السرير ... أترك المنزل مكرهة خلال تواجده مع أمي.

رويداً بدأت أتعود علي التصاقه بنا كجزء من أثاث بيتنا الحقير ... كثيراً ما تغاضي عن سطوات صغيرة لأمي علي مخزن الحانة ... قطعة لحم ... قليلا من أرز ... رغيفاً طازجاً ... لكنه لم يمنحها مطلقاً قدراً ، ولو ضنيلاً من مال.

حرصت أمي علي انتظامي بالمدرسة المختلطة الوحيدة بقريتنا ... كنت أجدني هناك بالينا فسيفلودفنا ، بينما أنا بين أترابي ، وأهل القرية بالينا سرجيفنا ... من الغريب أنني كنت دائماً أولي صفي بلا منازع ... تلميحات تتناثر حولي بقصد تحقيري : "

طبعاً الدرجة النهائية في كل المواد من نصيب بالينا سرجييفنا " ... لا أملك تعليقا علي تلميحات تعودتها ، فلا غناء لأمي عن سرجي بيفافاروف رئيسها ، وعشيقها ...حثتني أمي أن أدعوه" بابا "، وكنت أردد بلا تعمد مني" عم سرجي" ... ما كان الأمر يهمه في شيء ، فأنا بالنسبة له نفاية لا شأن لها ، كما كان يردد دائماً.

تفانت أمي في إرضائه ، وتملقه ، وخاصة حين يكون منحرف المزاج ، أو ثملا ... عبارات وضيعة ، وسباب فج يتفق وأخلاق قروي جلف متعنت ... تتحطم في وجوده بعض مقتنيات قليلة بحوزتنا كفنجان شاي ، أو طبق خزفي ... مصباح كهربي أو مقعد متهالك ، لتتحطم معه معنويات أمي.

أنهيت الصف السابع ، وكعادتي حصدت أعلي الدرجات ... همست مديرة المدرسة في أذن أمي تحضها علي ضرورة إلحاقي بمدرسة المتفوقين بالمدينة لإنهاء دراستي حتي الصف الحادي عشر.

صعقت أمي إذ ليس بمقدورها مجرد التفكير في خطوة كهذه مع حالة فقر مدقع ... طمأنتها المديرة بأن الحكومة السوفيتية ترعي الموهوبين بمدارس خاصة موفرة لهم الإعاشة والملابس ، والسكن ... هدأت هذه، وذهب عنها الروع لتتفتح آمالي، وفي نفس الوقت داهمني خوف مجهول ... المدينة التي ما رأيتها قط، تعني لي بنايات عالية، وشوارع أسفلتية، وعربات إضافة إلي الترام، وترولي باص ... أسمع أن هناك محطة سكك حديد ضخمة، ثم أناس متحضرون يستقلون القطارات إلي موسكو ولينينجراد، ومدن أخري لا أعرفها.

قالت أمي ، وهي تبتسم محاولة طمأنتي : " يمكنك الذهاب إلي المدينة بالحافلة ، أو الأتوبيس النهري" .

استوي الأمر بالنسبة لي، فما وضعت قدمي داخل أيا منها.

زيادة في ترغيبي ، ودحر موجة ذعر ألمت بي أضافت:

" سأذهب معك لأول مرة حتي تستقري ، ثم أعود إليك في مناسبات الأعياد ، وعند العطلات لأصحبك في عودة إلي المنزل"

ذهب عني الروع، وانتفي التوتر، وهدأت نفسي القلقة.. في المدينة سأكون "بالينا فسيفلودفنا" لا سواها.. هناك لا أحد يعرف "سرجي بيفافاروف" السخيف، وصلعته القذرة .. بياض عينيه المشرب بالحمرة حينما يكون ثملاً ... اشمئزازه من وجودي بالمنزل، وأمره لي بالخروج للتريض كي ينفرد بأمي.

قلت لأمي محذرة :

- لن يذهب معنا العم سرجي إلي المدينة بأي حال.

ردت عليَ هامسة في محاولة كف عن إثارة هذا الموضوع بعد أن لمست نفوري منه.

- طبعاً ... طبعاً يا حبيبتي ... لن يذهب معنا أحد.

تواءمت بسرعة مع مكاني الجديد ... أمكنني مزاولة ألعاب رياضية لم تكن بمدرسة القرية ... خرجت عن مألوف أطعمة كانت تسرقها أمي من الحانة ... تخيلتها أكثر تآلفا مع عشيقها في عدم وجودي.

... أشادت مديرة المدرسة الداخلية بأني تلميذة مثالية ... كل ما كان يعكر صفوي ، حتمية وجود ، وهذا السمج سرجي بيفافاروف خلال العطلات ... غدوت أكثر تفهما للأمر ، لأترك المنزل طواعية لمجرد تشريفه منزلنا ... يتلقفني الصبية الأكبر سنا للتريض علي ضفاف النهر أو السباحة ، واحتضاني مع لمس نتوء صدري ... كانت لمساتهم الخشنة موجعة فأدفعهم عني برفق ...

راقت لي صحبة فالوديا إيفانوف إبن رئيس مجلس القرية ... أنهي الفصل الحادي عشر بالمدينة والتحق بالجامعة ... جذبني إليه مظهر متحضر متأنق ، ونفور من صبية أجلاف اكتفوا بالصف السابع ، وتقديرات متدنية ليتسكعوا بالقرية ... حدثني عن تولستوي ، وبوشكين ، وترنَّم بكثير من شعر هذا الأخير ... قال إن لديه صديقات بالمدينة ، وأحياناً ما يصطحب إحداهن من خلال مجموعة لتمضية ليلة بإحدى الغابات ... همس في أذني بأنه عادة ما يسبح مع صديقته ليلاً في النهر عاريين تماماً ... تضرج وجهي بحمرة خجل ، فقهقه وقال إن بداخلي قروية ساذجة. في إنفرادة بي بعيدا علي شاطئ النهر، روي لي بتفاصيل غاية في الخصوصية، كيف يقضي وقتاً طيباً مع صديقته بالمدينة... كنت مبهورة لفيض من تصريحات وقحة محرجة لذيذة، وتفاعلت معها.

راحت كفه تمرح علي ظهري في صعود بطئ حتي عنقي ، ومن ثم امتدت لتصل من فتحة الفستان إلي نتوء صدري مدغدغة في رقة ... ضباب لطيب تهت في طيات نشوته برعشة خفيفة.

احتواني بين ساعديه ، وطافت شفتاه حول رقبتي ، ثم وجنتي ، وهوي بهما إلي شفتي ... استسلمت لدغدغات أنامله ، ولثماته ، واستلقيت علي رمال الشاطئ ... استلقي إلي جواري ، وشعرت بفستاني البسيط ينحسر عن ساقي... نفس الوضع الذي احتقرته ، وقبُح في نظري حين دخلت بيتنا علي حين غفلة لأصدم برؤيته بين أمي ، وسرجي بيفافاروف .

ألقيت عني فالوديا ، وانتصبت واقفة منكرة عليه فعلته ... نظر إلي باستخفاف وردد باحتقار :

" حثالة قروية متخلفة"

... ثم ... تركني ، ومضي.

بعدها ما حاولت الالتصاق بأحد ، وإن تابعت أخبار فالوديا إيفانوفتش عن بعد ، وعلمت أنه طالب بكلية الحقوق .

همست مديرة المدرسة الداخلية ، وهي تسلمني جائزة تفوق رياضي بحصولي علي مركز أول في السباحة :

- إن لك جسداً رائعاً يا بالينا، وما أحسبك سوي عارضة أزياء متميزة.

رنت كلماتها في أذني ، ولاقت وقعاً مستحبا.

... وجدتني أهتم بكل ما يمت إلي المودة ، وعارضات الأزياء ، وبيوتاتها ... نقّبت بالمكتبات ... سألت صديقاتي المدنيات ... مدرّساتي ... كل من أعرفهم ... قرأت ، وجمعت أكواما من المجلات ، وألممت بكثير من خفايا هذا الفن ... فن عروض الأزياء.

خطوات العارضات ... قوامهن ... تسريحات ... خطواتهن ... طرق ، وكيفية عروضهن ... و ...

تبقي لي أن أخطو خطوة فعالة تجاه أحد بيوت الأزياء التي لا أعرفها.

قالت المديرة ، إن لها صديقاً مصمما للأزياء ستحدثه بشأني ... احتضنتها ... وقبلتها ... لم أدر كيف أشكرها.

جافاني النوم ليلتها ، وأنا أحلم بخطوات رشيقة ، وجسد مَشار حسد أخريات يتبختر فوق منصة عرض ... عيون تتغني بمنحيات جسمي ... تصفيق معجبات مشدوهات لجمال ما أعرضه.

ذات يوم استدعتني ، وزودتني بقصاصة بها عنوان ، ورقم هاتف، واسم ... نصحت بأن أهاتفة قبل الذهاب ليحدد موعدا.

... وذهبت في أولي خطوات نحو صعود درجات شهرة، ومجد... تحقيق حلم داعب جفوني منذ همست المديرة في أذني.. مذ زودتي بقصاصة حرصت عليها كما لم أحرص علي شيء في حياتي.

تفحصتني مشرفة الدار من قمة رأسي حتي أخمص قدمي بمجرد أن لفظت بالإسم المدون لدي... طالت نظراتها لتقول في النهاية:

- لا بأس... قوام ملفت ، وتقاطيع وجه متناسقة ، وإن كان المظهر العام يوحي بقروية فجة ... هيا اتبعيني فالمدير يتوقع قدومك.

آمال عريضة تفتح أذرعتها لاستقبال زهرة برية متفتحة في ترحيب فاق كل توقعات ... تمهلي يا حاملة مفتاح باب الجنة حتي لا يقفز قلبي من بين ضلوعي ... أن أستوعب الأمر في رفق ورويّة ... أن أزدرد لعابي ... بقي ألآ تفضحني خطوات متعثرة خلفك ... إنشرح صدري لكلماتك المقتضبة الجافة ، وإن لم أنكر أبداً أني مازلت قروية حتي النخاع.

كان يجلس علي مقعد وثير في حجرة واسعة فخمة الأثاث ... تفحصني مليا بعد أن انصرفت المشرفة ، وأغلقت الباب خلفها ... أدار سبابته بما يعني أن أدور حول نفسي ... أطعت إشارة متوقعة ، وإن كان خجلي يدمغني بلا حدود ، لكن طموحي بلا حدود أيضاً.

كلمات انسابت من بين شفتيه في تلقائية:

- واضح أنك لم تتعاملى مع مصمم أزياء من قبل ... ماذا تفضلين ... شمبانيا ، أم كونياك ؟

لأول مرة ألاحظ أن منضدة أمامه فوقها زجاجتان.. لم أحر جواباً، ولم يكرر عرضه.
قال آمراً:

- إخلعي فستانك هذا.

توقعت أن يشير إلي فستان آخر لأرتديه ... لم ألمح شيئاً من هذا حين تلفَّتُ حولي ... حرج محيَّر استبد بي ، وترددت قليلا قبل أن يعقب في لهجة قاطعة :

- ألم تسمعيني ... قلت اخلعي تلك النفاية عنك.

صوت تعود صاحبه أن يطاع ...امتدت يدي في تلقائية لأنضو عني النفاية التي يعنيها ... أقصد فستاني.

مرة أخري أدار سبابته لأدور حول نفسي ... أحسست أن عينا خبير تتفحصا كل سنتيمتر في جسدي من شعر رأسي إلي أخمص قدمي ... هنا تذكرت ما حسبته ووعيته عن الأزياء والعارضات.

كنت أدور حول نفسي بعناية مدروسة من قبل ... أعرف أن لكل لفتة ، وحركة معني ... تحركت خطوتان للأمام ، ورجعت خطوة للخلف ، ثم أخري يمينا ، ومثلها يسارا.

سمعت همسة استحسان أثلجت صدري ... نظرت إليه لأجد عيناه تلتهمني.. حسنا.. لا غضاضة فهذا من صميم عمل مصمم الأزياء.

احتسي رشفة من كأس أمامه ، وأشعل لفافة تبغ نفث دخانها في ارتياح ظاهر ... و ... تعاظمت ثقتي في نفسي.

أشار بسبابته من خلال سحابة دخان صغيرة نفثها من فمه ، وردد في أمر مفروغ منه :

- إخلعي ... إخلعي كل ملابسك ، وقفي أمامي عارية تماماً.

... هنا لم أستوعب ما قاله ... بدا لي الأمر وكأنما خرج عن مضمونه ... منعطف حاد لم أحسب له حسابا ... ما سمعت أبدا أو همس أحد في أذني بأن على العارضة الوقوف أمام مصمم الأزياء متجردة تماما من ثيابها ... إذن ، فهنا شيء آخر يخرج عن نطاق الأزياء والعارضات ... شيء أشم له رائحة زخمة ذات خصوصية دنيئة أبعد ما تكون عن إدراك غاية ، وتحقيق حلم.

بادلته نفس النظرة المتفحصة.. نظرة مرتابة وإن كانت تأمل من خلالها دحر أي مخاوف يمكن أن تخطر لها على بال.. نظرة إنسانة بسيطة لا شأن لها ، وتقف أمام مصمم أزياء له اسم ومكانة.

أزعجني بشدة أن أري لعينيه نفس النهم المتلهف، كعيني سرجي بيفاروف عندما يتأمل جسد أمي وهي متخففة في ملابس رقيقة ... إقشعر بدني ، وتعالت ضربات قلبي ، وتوقعت حركة طائشة منه ليست في الحسبان.

تراجعت مبتعدة قليلا متفقدة مهربا إذا صح ما توقعته فجأة.

مد يده، واحتسي رشفة أخري من كأسه ، وتابع تدخينه.

بنفاذ صبر من لا يطيق تقاعسا عن تنفيذ أوامره ، صاح بي بغتة :

- قلت اخلعي ملابسك تماماً، وتحركي أمامي لأتفقد منحنيات جسمك.

بلغ جزعي أشده ، وتخيلته لا محالة منقض عليَ ليطرحني على الأريكة المقابلة ... اختطفت نفايتي ،أقصد فستاني البسيط ، واندفعت مولية الأدبار ليكون هذا آخر عهدي بالأزياء ، ومصمميها.

هجرت المدرسة، وما فكرت في عودة للقرية، لأزاول نفسي العمل الذي مارسته أمي؛ عاملة نظافة، ولكن في "رستوران" كبير.

تحفظت في علاقاتي بالآخرين ... اقتسمت حجرة حقيرة بحي أحقر مع عاملة بناء دأبت علي دعوتي بالفلاّحة ... كرهتها من أعماق قلبي ، وإن تملقتها ، وقمت علي خدمتها لآمن لسانها السليط ، وحماقاتها الهوجاء ... تأمرني بمغادرة الغرفة عندما يحل عليها أحد عشّاقها العديدين.

كثيراً ما اضطررت لقضاء الليل بمطبخ الـ "رستوران" فوق مقعدين متقابلين ... من الغريب أن اسم بالينا تلاشي ليحل محله اسم " الفلاّحة " ... نصحتني إحداهن بالالتحاق بمعهد متوسط لتعلم الطهي مدته سنتان ، طالما أني أنهيت الفصل الدراسي التاسع ... حلت هذه الفكرة كثيرا من مشاكلي ... عملت بالفترة المسائية لأذهب إلي دراستي صباحاً ، وأعود مسرعة إلي غرفتي الحقيرة لأنال قسطا من راحة قبل أن تعود عاملة البناء المرعبة إلي وكرها.

لاحظت أن ديمتري بافلوفتش كبير الطهاة يوليني قدراً من رعاية عن بعد ... ثارت مخاوفي ، وتقوقعت علي نفسي وَجِلة من اهتمام لا مبرر له ... هدأت نفسي ، وسكنت مخاوفي حين وجدته يهيم بالطاهية لوبوف ... بدأ يعهد إلي بإعداد بعض الأطعمة البسيطة كتدريب لطالبة في معهد الطهي إلي جوار عملي ... منحه هذا والطاهية لوبوف بعض الوقت لينزويا في ركن بعيد.

وافق مدير الـ " رستوران " بإلحاقي كطاهية مبتدئة عقب تخرجي من المعهد بناء علي توصية ديمتري ...

سعادة من امتطي السحاب غمرتني لمساعدة لوبوف في عثوري علي مسكن صغير بحي متوسط نظيف.

صلتي بأمي كانت قد انقطعت ، وما فكرت في الكتابة لها ، إلا حينما أعرب أنا تولي ايجورفتش ، سائق سيارة إمداد الـ " رستوران " بالتموين عن رغبته في الاقتران

بـي ... علمـت أن الطاهيـة لوبـوف زكتنـي لهـذه الزيجـة التـي وافقـت عليهـا دون اعتراض ... كل ما يهمني أن ألوذ بمأمن بعيدا عن سخافات وتطفلات طامعين.

مضت بي حياة رتيبة مملـة مـع زوج محدود القدرات عديم الطمـوح ... فقدت مهنـة الطاهيـة بريقهـا ... مواقـد ، وأفـران ، وحـرارة مقيمـة ، وأبخـرة طعـام ... أوان ، وأطبـاق ، ومنـزر أبـيض ... أيـن هذا ، وروائـح العطـور ، والتسريحات ، وأزيـاء لا حصر لها ... مازالت بداخلي عارضة الأزياء التي حلمت بها.

وهجرت عـالم الطهي إلـي تقديم الأطعمـة لأتنقل بـين الموائـد كفراشـة جميلـة مثـار تحديق، وإعجـاب رواد متـأنقين.. لا أغفل أبداً إطراء تسريحة، أو ذوق فستان، أو جمال السيدة، أو الآنسة رفيقة سيد الجلسة المهذب لتنهال عليّ الهبات.

ضقت ذرعا بالسائق البليد ، وانفصلت عنه ... مـن غريـب الصدف أن القاضـي الـذي فصل في دعواي، كان هو بعينه فلاديمير إيفانوفتش، ابن قريتي ... رأيتـه يتفحّصني مليّا ، وكأنمـا يحـاول تذكر " الحثالـة القرويـة المتخلفـة" ... اختلـف تمامـا عن ذلك الـشاب المتـأنق ، أو أن نظرتـي إليـه هـي التـي تغيـرت ... رأيـت رجـلا بـدينا مترهـل الجسم كأنما يعاني من مرض معين ... نظرات وقحـة نهمـة خصّني بهـا تمنيت معهـا أن أقول لـه :

" إليك عني أيها المترهل المتمدين"

انتقلت إلي حي راق ، ومسكن من حجرتين ، وشرفة تطل علي حديقة واسعة ... مـع حالة مادية مستقرة لا بأس بها ، كان ولابد أن ينغّص عليَّ مستقري خـواء نفسي لا فكاك منه ... وثقت أنه النصف الآخر الذي ينقصني ليصبح هذا شغلي الشاغل.

... و ... اقتربت منه بابتسامة أدركت روعتها من نظراته الوالهة ... كان يجلـس إلـي منضدة وحيدا في ارستقراطية ملفتة ... عريض المنكبين في أناقة تدمغها وسامة لا

تخفي ... استقبلني بوجه طلق زانه مظهر المتحضر الواثق من نفسه ... تبادلت معه حديثًا قصيرا خرج عن مألوف نادلة بـ " رستوران " ... التقينا مساءً ، وبعد نزهة قصدنا أحد المسارح ... سألت نفسي إن كان هو النصف الآخر واسع الأفق راقي الفكر الذي أتعشمه؟

قال أنه قبطان بحري ، وأنه في دورة دراسية لمدة ثلاثة أشهر ... أضاف في ظرف أن قوامي الملفت ، وتقاطيع وجهي الساذجة فجّرا فضوله ، واهتمامه.

في نقله غريبة مفاجئة عرض عليّ أن يتزوجني ... حسبتها مزحة ، وطعما يلقي به لساذجة كراغب متعة عارضة ... لمست مظاهر جدية ترتسم على وجهه .. أضاف بثقة تأكيد ما أسرَّبه ، وأنه لا يود أن يعرف شيئا عني قبل لحظة لقاءنا ... يسعده أن يرتبط بي قبل أن تنتهي دورته الدراسية بالمدينة لنطير سويا إلي مورمانسك حيث يعمل.

هناك بمورمانسك استقبلني مسكن بحي العِلْيَة من القوم فاق كل ما حلمت به ... وجدت صعوبة بادئ الأمر للتكيف مع حياة جديدة لم أعهدها ... زوج بالغ الطموح ، تأتي اهتماماته بزوجته في مرحلة ثانية بعد عمله ... ما كنا نعتبره ، ونُعِدّه خزيا ، وعارا بالقرية ، يعتبرونه هنا حرية وانفتاحا ... خيانات زوجية ... فتيات ليل .. احتراف دعارة ... تفكك أسري ... سرقات مقننة ... ثمالة وتسكّع ... و ... تدور عجلة الحياة بلا توقف لأي عارض أيا كان ثقله.

وجدتني أنغمس في كل هذا حتي أذني ... قضي اسم لودميلا جريجورفنا علي كل أثر لماض كرهته ، ودفنته في جب عميق ... تفتحت نفسي لحياة لاهية صاخبة ، وإن كانت بلا هدف أو غاية معينة.

... و للمرة الأولي في حياتي ألمح شرقيا أسمر ... كل شيء فيه كان مثيرا خارجا عن المألوف ... ملابسه ، وطراز متميز ، وتناسق ألوان ... تعامله مع الآخرين لاسيما الجنس اللطيف ... أرستقراطية ، وترفع من هنات تنبئ بعراقة أصيلة ... لكنة خفيفة عند الكلام ، وأسلوب حديث شيق.

أطريت فراستي عندما علمت أنه مصري ... ربيب حضارة آلاف سنين ، وبالتبعية آلاف أميال تفصله عن موطن أطنب في صفاء سمائه ، وإشراقة شمسه ، ودفء مياهه ... لا تبدو عليه سمات غرة ، أو تهور.

تهذب غير مفتعل في إطرائه ، وملاطفتي ... وتعاظمت رغبة دفينة لارتماءة بين أحضان الفرعون الأسمر، أو استحواذة عليه ، إن كان إلي ذلك سبيلا ... لأول مرة أشعر بحنين الأنثي نحو رجل اختارته لذاته دونما غرض آخر.

لمحته بالمدينة ، وفتاة شقراء تتأبط ذراعه ... أحسست بالغيرة تدب في كياني كامرأة عاشقة ... للحظة حدثتني نفسي بتتبعهما ، وللتو استسخفت الفكرة ، وإن كرهت شقراء لا أعرفها ، وما لمحتها من قبل ... هاتف داخلي ، فقط مجرد هاتف ، أوحي لي قرب لقاء معه في حميمية انسقت خلفه ، رغم تأكيد واقع وجود أخري إلي جواره.

... و ... لم يطل انتظاري ... تلقيته داخل الـ " رستوران " بفرحة لقاء تسع كل الرواد ، والعاملين ...

جلست إليه فتاة أعرفها ... إيه يا فتاة ... أغبط مالك من فراسة ، وذوق رفيع ... تبقّي لك معرفة أن مجون ، وخلاعة بنات الليل لا تستهويه ... إنه ليس لك علي الأقل هذه الليلة ، فهو رجلي ... أثق في ذلك لما ألمحه من انحراف مزاج وتكدّر لن

تفلح معه مساعيك ... إنه طراز فريد من الرجال ، نادرا ما نلتقي به ... أجدني المرأة الوحيدة التي يمكنها قنص ابن الشرق الأسمر.

... و ... أدخلت النّفور المتمرد قفصي لأشعر بأني بين أحضان من اخترته ، وعشقته لأعطيه بلا حساب ... لو أشار لي بأصابع ، لتبعته إلي أي بقعة في العالم دون عناء سؤال ... لماذا ؟

ما كنت ممتلكة نفسي ، وعواطفي لأكون في وداعه بالميناء ... حين يبتعد عني في طريقه إلي سفينة علي وشك الإبحار.

تسللت خلفه دون أن يراني في طريقه إلي الميناء ... رأيته يرتقي السلم لتحتويه قلعة تهدر محركاتها انتظارا للإذن بالرحيل ... وحين تحركت السفينة مبتعدة رويدا ، ظهرت من مكمني وأسرعت حيث المودعون ... إنسابت دموعي في صمت ، ولوحت بشيء أعتقد أنه إيشارب ... لمحته يلوح لي ، ويهتف باسمي ، وكفاني هذا منه.

أعرف أننا لن نلتقي مرة أخري يا عشقي ... لن أري ابن الشرق الأسمر ثانية مدي الحياة.

ذهب في طريقه ، والتصقت برصيف الميناء ... سأترك مكاني هذا مرغمة لأعود إلي الـ " رستوران " ، وحياة لم أخترها لتتقاذفني الأهواء كيفما اتفق.

* * * * *

النسر الصغير

صوت جينا يجلجل عادة :

" لا تجنح بالكيس يا نسر ... لا تناور أكثر مما ينبغي ... ألا تبا لك ... نريد الكيس هنا ، وليس بالسماء ... إهبط قليلاً ... نعم هكذا ... والآن ، إنزل بسرعة وغير الرباط ... إبدل الخطاف لرفع مؤخرة الكيس " ...

كان يعنيني دائماً بتوجيهاته ، بينما مراحل العمل تمضي بشكل انسيابي دون جلبة تذكر ... يطالب الرجل بالمثالية في كل جزئية ، رغم خبرة بحارته الطويلة ، وتداركهم الخطوة التالية.

قال جينا ، أنه يأمل أن يري في شخصي أحد علماء الثروة السمكية البارزين ، إذ ليست العلوم النظرية كل شيء ، بل العمل هو المجال الحقيقي لميلاد النظريات ، وتحقيقها.

- اسمع يا نسر ... أستشعر أنك ستكون ذا شان يوماً ، فلا تنس مساهمة جينا المتواضعة ... والآن اسحب قميص الكيس اللعين هذا لنعاين موضع التمزق ... ألا تبا لهذا القبطان ... إنه شاب لعين أيضاً رأسه مشوش بعلوم الجامعة ، ويسعي خلف الأسماك حتي بالمناطق الصخرية لنقضي طول الليل في رتق الشباك أو إبدالها بأخري.

أثارت ضحكاتي حنق جينا ، فشيعني بلعناته كعادته ، وإن تساءلت بدوري :

" أي ذي شأن سأكونه يا تري؟"

عدت بذاكرتي إلي الوراء ، وأيام امتطاء الحمارة السوداء ، وعنت الذهاب إلي المدرسة بالقرية المجارة... هسهسة كلمات أستاذي الجليلي محمد حسن أبو حمرة:

" أتوقع أن تصبح ذا شأن يوماً "*... إنها نفس الكلمات التي كررها جينا على مسمعي اليوم.

كان الجو باردا ، لكنني أتصبب عرقا لفرط الجهد المبذول ... أعاني من ثقل الشباك المشبعة بالماء المالح ... تفلت عدة مرات ... رغبة ما حقة لتدخين لفافة تبغ ، لكن هذا الوغد جينا لن يدعني أستمتع بتدخينها.

واصلت سحب القميص الشبكي جاهدا علي طول الممر الجانبي ... يزيد طول الممر عن خمسة وعشرين مترا ... رثيت لحال صائدي الأسماك في جميع بقاع العالم ... لا يعرف أحدهم معني لراحة طالما كانوا علي سطح الماء ... أري أنهم تأقلموا علي هذا النوع من الجهد المضني ، فكل مهيّأ لما خلق له.

كبائن البحارة ، ومساعدي القبطان علي يساري ... تمنيت أن أكون في فراشي متدثراً بالأغطية في هذا الوقت تحديداً ... كرهت أنا أكون مبللا بخليط من مياه البحر ، ودهون الأسماك ... لكن لا بأس ، فكلنا طاقم الصيد هذا الرجل وقت العمل.

كنت أناجي نفسي مواسياً حين بلغني صوت جينا عن بعد :

- هيا اسحب أيها النسر الصغير.

يالك من عجوز مشاكس !.. رغم دماثة خلقه ، وقلبه ناصع البياض ، إلاّ أنه لا يعرف هوادة أو لينا أثناء العمل ... كم أعزُّه ، وأجله هذا الخَرِفُ المتصابي.

بذلت جهداً أكبر في شد الشباك التي تزداد ثقلاً كلما بعدت المسافة ، ربما هرباً من لعنات جينا ، وسباب لا ينتهي ... أو أنها رغبة في إنهاء مهمة سخيفة مللت تكرارها.

* الجزء الأول من الخماسية : " ثغرة في أسفل الجدار " .

لمحت ضوء ينبعث من نافذة الكابينة الأخيرة قرب نهاية الممر ... تساءلت في عجب عمن يجافيه النوم في هذا الوقت ؟! ... أقسم أني أستطيع النوم واقفاً لو أتيح لي هذا.

ازدادت خطواتي قصراً ، وتتابعا ... صررت على أضراسي ، وانحنيت إلى الأمام أكثر ... تتنامى المقاومة ، وأتفاني في بذل الجهد ... ما تزال أمامي أكثر من خمسة أمتار لأصل لنهاية الممر.

إقتربت من النافذة المضيئة ، ونظرت تجاهها بدافع من الفضول.

للحظة ذهلت ... زفرت أنفاسي دفعة واحدة ... توقفت عن سحب الشباك.

يا ربي !! ... أيعقل هذا !؟! ... وكيف ؟

كانت أمامي شقراء هيفاء عارية ... اللهم إلاّ جزء صغير أسود اللون لا يكاد يذكر يغطي أقل مساحة من عجيزتها ...

يا آلهي ! .. ما هذا؟ ...

فركت عيني التي أشعر بمقلتيها ، وقد اتسعتا إلى أقصى حد ... و... انفلت القميص من بين يدي.

... يا رب السماوات !!!

تحولت إلى النافذة المنحسرة عنها ستائرها ليلتصق وجهي بالزجاج.

ـ لماذا توقفت يا نسر؟

عيناي تلتهم مفاتن الحسناء الواقفة أمام المرآة ، ولا ألقي بالا لتساؤلات جينا.

... من هي ؟ ... وكيف اتفق وجودها هنا ؟

انتفض جسدي ، وتلاحقت أنفاسي ... جزء لا بأس به من بخار هواء احتواه زفيري تكثّفَ علي سطح زجاج النافذة الخارجي ... مسحت سطح الزجاج لأري أوضح.

- أنت يا نسر ... أمازلت هناك ؟

أمسح كل شبر من جسد الفاتنة... أهيم في واد آخر بعيدا عن جينا ، وشباكه ، وأسماكه ، والسفينة نافيجاتر ... نظرتي تتفحص قوام الأنثي ... وجهها ... جيدها ... صدرها ... خصرها ... عجيزتها ... فخذيها ... تضع مسحوق علي وجنتيها...

- ماذا بك يا نسر ؟ ... هل مازلت حيا ؟

ربما تدرك الأنثي بغريزتها أن ذكرا يلتهمهما بعينيه ... ما تكاد تنثني إلا لتستقيم .. وما توليني صدرها ،حتي ترتد بظهرها ، وعجيزتها شبه العارية ، وأفخاذها المجنونة.

تنثر مسحوقا حول ثدي ، ثم تهتم بالآخر ... ترفع إحدي ساقيها لتضع بعض الكريمات حول فخذيها ...

تستعرض مفاتنها أمام مرآتها في غفلة من عيني ذكر شاب فحل واثق من قدرته ورجولته تلتهمها.

كنت مأخوذا مبهوتا ... لا أشعر بالحائط المعدني كحاجز يفصل فيما بيننا.

أجدني معها بداخل الكابينة أنتظرها حتي تنهي زينتها ... أمنّي نفسي باحتواء الجسد البض المتدفق حيوية لأغيبه بين أحضاني.

جن جنون الرغبة ،والشهوة ... لا أكاد أتنفس أو أرمش بجفني ،حتي لا تضيع لحظة دون التمعن في الجسد الرائع ،وصاحبته الحسناء.

لا يولي النسر الصغير أدني اهتمام بنداءات ، ولعنات تأتي من بعيد ... أثار صمت النسر قلق وريبة جينا ... آثر الوقوف علي ما حاق برجله.

- تري ماذا هناك ؟ ... لماذا هو صامت ؟ ... ربما أصابه مكروه ... إني قادم أيها النسر ... لا تجزع يا فتي.

تناهت إلي سمعي خطوات جينا الثقيلة المتلاحقة في هرولة سريعة ... ما إن لمحني أمام النافذة المضيئة حتي بادرني عن بعد :

- ماذا بك ؟ ... هه ... لعلك بخير ... هل هناك ما يسئ ؟

إقترب من النافذة ... تنحيت قليلا دون أن أرد عليه ، وأيضا لم أبعد وجهي عن النافذة.

- ماذا هناك ؟ ... ولماذا أنت صامت؟

نظر بدوره إلي النافذة ... صمت لعدة ثوان حتي استوعب الموقف.

- يا إلهي ... إذن فهي هذه اللعينة ... إنك محق يا نسر ... لكن ...

... ثم وبقبضة يده الغليظة ، دق علي زجاج النافذة بضع دقات قوية سريعة :

- هيه ... أنت أيتها العاهرة ... أمامنا عمل لابد من إنجازه ... إسدلي ستائر نافذتك هذه ... ألا تسمعين؟

فوجئت المرأة بصوت الطرقات علي زجاج النافذة ... إلتفتت تجاهنا دَهِشَة ، فإذا جينا يشرع قبضته مهددا لثوان.

استوعبت المرأة لما يحدث ... اعترتها ابتسامة مشوبة بخجل ،وحرج ... أسرعت مقتربة من النافذة يترجرج ثدياها في إثارة مهولة لتسدل الستائر.

انتهي الفيلم ... أنزلت ستائر المسرح ... حان الوقت لينفض جميع المشاهدين.

زفرت أنفاسي في أسي وحسرة ... أفقت من خدر لذيذ علي غير رغبة مني ... واجهت جينا في نظرات لائمة معاتبة ، وأنا أخرج علبة لفائف التبغ ... أخذت لنفسي

واحدة وأعطيت أخري لجينا ، وجلست علي أرض الممر ... أتكأت إلي جدار الكابينـة وجلس جينا أيضاً.

- ما هذا يا جينا ؟

نفث دخان لفافة تبغه ، ثم قال في شبه احتجاج :

- ألا تري أنها عاهرة جميلة ؟

بسياق تساؤل محموم أضفت :

- لكن من هي؟

ردد في نغمة تحصيل حاصل من لا يملك من الأمر شيئاً :

- إنها سفيتلانا ... عشيقة القبطان ... وهي رسميا طاهية طاقم القيادة.

في لهجة عتاب دققت في الوجه المعرض عني عقبت قائلاً :

- لكنك لم تحدثني عنها حين سألتك في بداية الرحلة.

واجهني ليقر حقيقة غائبة عني :

- وبم يفيد الحديث ... ألا تري أنها خاصة بالقبطان؟

- آها ... لكن أتوجد أخريات ؟

- هناك أخري خاصة بكبير المهندسين ... والآن هيا بنا ، ولننهي هذا اللغو ، ونعود

لعملنا لقد أخرجتنى اللعينة عن طورى .

قهقهت ساخرا لأواصل :

- آه لك أيها العجوز المتصابي .

باحتجاج من يدفع عنه سخرية عارضة عقب :

- إذهب إلي شيطان أمك ... ألست رجلا ، وأنت تري ما نعانيه ... لعنها الله.

قلت مستنكراً :

-أتراك تؤمن بوجود إله أيها الملحد؟

... لأول مرة أري الغضب متجسداً علي وجه جينا ... لكنه سرعان ما امتلك زمام نفسه وأجاب في هدوء ، وتأن :

- اسمع يا بني ... إنني مسيحي قبل كل شيء ، تماما كما إنك مسلم ... لكني لا أستطيع التصريح بهذا أمام هؤلاء الملاعين أعضاء الحزب الشيوعي ... وفي النهاية شئنا أم أبَيْنا سنذهب لنقف أمام رب السموات ... وهناك حيث اليقين سنري من المحق ... أهم المؤمنون أم الملحدون ؟

اسمعني جدياً يا نسر ... يجب أن تعي كلامي ، وتأخذه مأخذ الجد ... دعك من كل جدال لا تجن من خلفه ثمارا ... إنك تسعي جاهدا لنيل درجة علمية ذات شان ، فاسع دائماً لتحقيق هدفك ... إلق خلف ظهرك بكل التُّرَّهات ، لاسيما هؤلاء العاهرات ... ستجدهن دائما في كل مكان كذباب الصيف ، ولتجدنك في حاجة لغلق بابك ، وإسدال ستائرك كي لا تتسلل إحداهن فتنغص عليك عيشك ... إنهن لا يتركن خلفهن إلا خرابا أو مرضا عضالا ...

وتذكر ، إن لم يُرْدِك الطلق الناري ، فسيترك عاهة تعاني منها ما حييت.

هيا يا نسر ... هيا يا بني لنواصل منغصات الحياة ... هيا اسحب قميص الشباك اللعين هذا ، ودعني أساعدك.

... وانصعت لكلمات جينا.

* * * * *

"الوسيم"

دوي صوت الميكروفون إيذانا ببدء عملية صيد جديدة ... حرّك البحارة روافع الأوناش الأفقية ... قرقعت البكرات الحديدية الضخمة بأحبال الصلب الملفوفة عليها ... بدأ الكيس الشبكي في الإنزلاق علي المجري المائل ... تحول جينا إلي عيون تمسح كل شبر بمنطقة عمليات الصيد بمؤخرة السفينة.

تمضي السفينة في طريقها حثيثا بينما مؤخرة الكيس تغوص في الماء تدريجياً ... إنزلقت الأثقال الكروية المثبتة علي حافة الكيس السفلية ... إرتفعت العوامات الصغيرة بلونها البني ، والمثبتة بالحافة العلوية للكيس ... لمع لونها بفعل رشاش الماء قبل أن تختفي بدورها مع الكيس ... أحبال الصلب تنزلق محتكة بالبكرات الصغيرة الجانبية السفلية فتقلل من اهتزازها.

رفع جينا يده اليسري ، فتوقفت بكرات الونش الأفقي عن الدوران ... بادرت إلي ذؤابة مدلاة من حبال الجر تبلغ حوالي ثلاثة أمتار ، لأوصلها بأعلي الطبلية المعلقة إلي مؤخرة السفينة من جانب البكرة العلوية الصغيرة.

خفض جينا يده ، فدرات بكرات ونش الجر الأفقي إلي الخلف حتي إذا حازي القفل البحري موضع زميلي كوستا الذي يقف إلي جوار بداية المجري المائل ، التقط ذؤابة أخري وأوصلها بأسفل الطبلية ... زميلان بالجانب الآخر يؤديان نفس العملية.

تأرجحت الطبلية عن موضعها ، وبادرت بفصل الأحبال لتتحول الحركة إلي البكرات العلوية.

رفع جينا يديه لتبدأ عملية الصيد ... تابعنا الطبليتين ، وهما يغوصان بهدوء في الماء ليفتحا جانبي الكيس.

اتجه جينا إلي الهاتف ، ورفع المسماع مبلغا طلقم القيادة بسلامة بدء العملية ... علامات خضراء متتابعة تليها أخري صفراء ، ثم حمراء تظهر علي أطوال معينة بأحبال الصلب تفصح عن مدي عمق الكيس.

... هناك بكابينة القيادة من يتابعون عملية الصيد من خلال جهازي الـ " إيكوساوندر" ، كشف تجمعات الأسماك ، والـ "سونار".

ظل بحاري ونش الجر الأفقي يتابعان العلامات وأيديهما علي الروافع ... زادت سرعة السفينة بما يعني بلوغ الشباك العمق المطلوب.

رمقني ألكسندر ، البحار المتابع لبكرة الونش اليسري بنظرة عدائية بغيضة بادلته إيّاها دونما سبب مقنع.

شاب ممتلئ متوسط الطول يكبرني بحوالي خمس سنوات ... وسيم إلي حد بعيد ... توحي عضلات جسمه ، بأنه كان رياضيا له شأنه يوما ... يسرف في التدخين ، حتي لا تكاد تلمحه بدون لفافة تبغ مشتعلة ... دائماً ما يخصني بنظرات عدائية ، ولم يبادلني كلمة منذ وضعت قدمي علي السفينة ... أيضاً ما حاولت استمالته من جانبي ... يتغاضي جينا عن بعض تصرفاته الشاذة.

قال كوستا ، أنه يسرف أيضاً في الشراب، حتى لا يجد غضاضة في شرب الـ " كولونيا " مستعيضا بها عن الـ " الفودكا" التي لا يجدها علي ظهر الباخرة ... أحيانا ما يسطو علي مخزن السفينة ليختلس الـ " جمالاكا " الدهان الخاص بالأخشاب ، ثم وبقطعة قماش ، وقليلاً من ملح يتم ترسيب اللون ليحصل علي الكحول.

خيل إليَ أنه يعاني من مأساة هي سبب هروبه إلي البحر وصيد الأسماك.

لم أوله اهتماما يذكر ، وإن كان دائماً ما يختصني بنظرات بغيضة تنم عن كراهية غير مفهومة.

هاجس خفي يهمس في أذني بإلحاح غريب :

" إحذر هذا الأخبل ... تحاشاه ... إبتعد عنه ... لاتحتك به ... لن تجني من ورائه سوي متاعب أنت في غني عنها ".

تطيّرت للهاجس الغريب ، وإن لم أجد سببا واحدا مقنعا لتطيّري ... لا شيء يجمعنى بالرجل سوى وردية عمل ... حقا هناك عدم قبول يعتبر في حد ذاته قاسما مشتركا ، فالإنطباع الأول يدوم.

صاح جينا معلنا أن هناك خمس دقائق يمنحها نسوره للتدخين ... انزويت خلف قائم الونش الأيمن معتمدا علي حاجز السفينة الجانبي لأدخن في هدوء ... صافحت وجهي هبّات ريح باردة أنعشتني ، وأرسلت بصري بعيدا إلي تلال نوفايازيملا المغلفة بالضباب ... بدت كئيبة قاحلة تفتقر إلي الأنسة ، وحركة الحياة ... ربما تؤمها طيور النورس لبناء أعشاشها ... أو أنها مرتع لكلاب ، وأفيال البحر كمهجع للتوالد ... ما أشبه هذه المناطق النائية بصحارينا القاحلة مع اختلاف المناخ ... هناك حر قاتل ، وقفر يناسب العقارب ، والحيات السّامة ... وهنا صقيع مميت لا قبل لابن الشرق به.

قد يهرع صائدوا الدببة ، والثعالب القطبية إلي مثل هذه المناطق سعيا وراء الفراء غالية الثمن ... وتظل في النهاية عملية صيد أيا كانت المنطقة ، ومدي وعورتها ... أعتقد أني ما كنت أجازف بالمضي إلي هناك مهما كان الدافع ، سواء حبا في المغامرة أو طمعا في كسب مادي.

ارتددت ببصري أتابع النوارس المحلقة دأبا فوق الأمواج المتلاحقة لسد غائلة السَّغب ... لا شك أن آلافا من السنين مضت ، وتلازمت بين البحر ، والأسماك ، والصيادين كعلاقة أزلية بين طالب صيد ، ومطلوب كفريسة.

أفقت من شطحتي علي صوت جينا يدعونا لمتابعة العمل ، أو منغصات الحياة كما يطيب له أن يسميها.

أخرجنا الكيس الإحتياطي من المخزن تحسبا لأي قطع أو عطب بالكيس الرئيسي لنضعه علي الممر الجانبي الأيسر ... أمضينا وقتا ، وبذلنا من الجهد ما تصببت له أجسادنا عرقا.

صدح الهاتف برنينه المميز ، وتناول جينا المسماع معلنا استعداده لسحب الكيس ، وبدأت السفينة تهدئ من سرعتها ... عملت بكرات السحب الكبيرة ... إلتزم كل منا أفراد طاقم الصيد موقعه ... فردت الأناش العلوية أذرعتها حالما ظهر الكيس عن بعد فوق سطح الماء يتهادي في طريقه إلي المنزلق المائل ... قدرنا حمولته بحوالي خمسة عشر طنا تقريبا ... تهافتت طيور النورس محلقة حول الكيس ، ثم لتنقض علي مائدة الرحمن تلتهم مما ساقه الله من خير ... طغت أصوات الطيور علي هدير الآلات ، فيما اعتبرته في تفسيري حمد الله وشكراً علي نعمة معطاة.

عملت الأوناش العلوية لتساعد في سحب الكيس من علي المنحدر المائل ... أصبحت مؤخرة الكيس أمامي وفوق غطاء فتحة التفريغ ... اتجهت بتلقائية لأفتح الكيس يخالجني شعور بالغبطة ... كل هذا الخير الوفير ، محصلة تكاتف شرذمة من البشر تعاني من قسوة طبيعة بين الأمواج ، والبرد ، والعواصف والأمطار.

... فوجئت بدفعة من الخلف علي غير توقع ، انزلقت علي أثرها فوق الأرض المشبعة بالمياه المالحة ، ودهون الأسماك ، ودمائها ... أمكنني المحافظة علي

توازني ، ولم أسقط كمن يتزحلق علي الثلوج حتي بلغت الحاجز الجانبي للسفينة فتشبثت به ... ضج البحارة بالضحك ، كما قهقه جينا ... ربما لطريقة تزحلقي.

التفتُ في تساؤل ، ودهشة !!! ... كان ألكسندر هو الذي دفعني.

غلت الدماء في رأسي ، وتملكني الغضب حتي شمل كل حواسي ... زاده حدة واشتعالا ضحكات البحارة.

انتزعت السكين من جرابه المتدلي من الحزام إلي جانبي ... لا أري أحداً أمامي سوي ألكسندر ...

تركزت نظراتي علي وجهه الكسيف ... خطوت إلي الأمام في تحفز بالغ ... لم يستفزه تصرفي ، وبادلني نظرة ساخرة مستهينة.

" سأمزق وجهك أيها الوقح لأعلمك ألاّ تهزأ بالغير ... سأجعلك عبرة لكل تافه نكرة

حقير "

تقدمت خطوة أخري في عزم ، وتصميم... فاجأني صوت جينا عالياً مجلجلا كعادته:

- إيه يا نسر ... أتريد قتل ألكسندر اللعين ؟ ... لقد قتله وغد من قبل ، ولكن بدون سكين.

تعالت ضحكات ، وقهقهات البحارة ، وتغامزوا فيما بينهم ... و ... لم أفهم ما عناه جينا بعبارته.

... كنت إزاء موقف فريد ... بينما أستشيط غضباً ،أري موجة من الضحك ، والغمز ، واللمز تصب جهة ألكسندر شماتة ، واحتجاجا علي تصرف مستهجن.

رأيت من الأوفق كظم غيظي ، كي ألِمَّ بما يدور حول هذا السمج من غمز ولمز.

عدت أدراجي ببطء ، وأنا أقبض علي السكين تحسبا لأي تصرف أهوج من هذا المعتوه.

نظرات عدائية سافرة متحدية نتبادلها في صمت مرير.

رسمت علي وجهي شبه ابتسامة لأقول من خلالها :

- لعل زميلنا المهذب أراد أن يلقنني درسا سخيفا في التزلج ، لكن عليه أن يحترس فأظافري جارحة علي غير ما يتوقع.

كلل نظراته الوقحة ببصقة علي الأرض بصوت مسموع.

شرعت سكيني في الهواء ، وهززت قبضتي مهددا متوعدا ... و... توقف بنا الاحتكاك عند هذا الحد.

... اندمجت مع الآخرين في تفريغ الأسماك مكفهر السريرة ناقما صبري علي هذا الوقح ... لم أستطع التغلب علي انفعالاتي بالإنهماك في العمل ، وظل بداخلي بركان يغلي من الغيظ ، والحنق ... وثقت أن لي معه جولة صدام ستقع عاجلاً أم آجلا ، لابد لي من وضعها في الحسبان.

انتهينا من تفريغ الأسماك ، وما إن أنزلنا الشباك لجولة صيد أخري ، حتي وافانا البدلاء من الوردية الثانية ... اتجهنا إلي غرفة خلع الملابس ، وأنا أتحين فرصة لأشيع ألكسندر إلي الجحيم.

سمعت جينا يدعوني ، وهو يهرول خلفي :

- هيه ... نسر ...

توقفت حتي لحق بي ، وسار إلي جواري .

- لا تحتد يا بني ، ولتغفر له هنته تلك ، وأرجو ألا تحتك به.

هممت أن أرد عليه ، بيد أنه واصل :

- أعرف طباعكم أيها الشرقيون ... لقد جبت معظم بحار العالم ، وعملت مع الكثيرين من أبناء الشرق ... أري أمامك مستقبلا زاهرا ، وإنك في مقتبل العمر فلا تدنس طريقك بهذا النكرة ... إن أمثاله فاتهم قطار الحياة الكريمة ... هيا بنا نبدل ملابسنا ، وأتعشم ان تعتبر ما حدث زوبعة في فنجان.

لم يدع لي جينا فرصة للرد عليه ... أقلقتني تصريحاته ، وزادتني توترا ... طغي علي نفسي البشرية عناد ابن جَحْدَم* ... وازددت إصرارا علي حسم الموقف مع ألكسندر هذا ... لكن كيف ؟.

خلعت عني ملابس العمل ، ثم اغتسلت ، وارتديت ثيابي ، واتجهت إلي قاعة الطعام.

جلس كوستا إلي جواري ... كنت منحرف المزاج ... فوجئت بالفتاة الأخري تقدم الطعام علي غير ما تعودناه ، فالقاعدة أن تخدم نفسك بنفسك ... لم أهتم بها ، فكل ما يشغلني هو ذلك الوقح ألكسندر ... لمحت الفتاة ترمقني بنظرات متفحصة ... وجدتني أغمغم علي الرغم مني :

" فلتذهبي إلي شيطان أمك "

حاولت جاهداً دفع خيال ذلك الأخبل عن ذهني دون جدوي ... تناولت لقيماتي عجلا بغير استساغة لما آكله ... هممت بترك مقعدي حين صاح كوستا :

- أنت أيها الفرعون الصغير...

نظرت إليه متسائلا :

- دعنا نذهب إلي كابينتك لنشرب الشاي هناك.

كنت في حاجة لمن أتحدث إليه ... رحبت به ، واتجهنا إلي الكابينة ، وهو يحمل إبريق الشاي.

* جحدم : قرية صغيرة بمحافظة أسيوط " إرجع إلي الجزءين الأول والثاني من الخماسية ".

يشاطرني الكابينة بحار أرمني شاب يعمل بالوردية الثانية ... قال لي يوما إن مهنته صقل الماس ، ولا أدري أي شيطان قذف به إلي عرض البحر.

جلس كوستا مواجها لي ، تفصلنا منضدة صغيرة ... ملأ الرجل الأقداح ، وأشعلنا لفائف تبغ ... عبقت الحجرة الصغيرة بدخان التبغ المحترق ... فتحت الكوة المستديرة لتجديد الهواء.

اضطجع كوستا إلي مسند الكرسي ، وقال وهو ينفث الدخان من فمه ، وأنفه علي فترات متقطعة :

- أستمحيك عذرا يا فرعون ... لقد سمعت ما قاله لك جينا في الطريق إلي غرفة خلع الملابس ، وأري أنه محق ... تعرف أننا نقدر ذلك الرجل العجوز ، ونعتبره أبا روحيا فهو يرعانا جميعا.

تفرست في وجهه لعدة ثوان قبل أن أقول :

- ماذا تعني يا كوستا؟

- أعني ألا تهتم بألكسندر ، فأنا أعرفه منذ فترة طويلة ... مهندس إنشائي مدني ... كان دمث الخلق مهذبا ، حتي تزوج وأصبح له ابن ... هجرته زوجته دون مقدمات ، لتفر مع صديق لها من كوبا مصطحبة الطفل.

أهمل عمله حتي استغنوا عنه ، فاتجه إلي البحر وصيد الأسماك ... اقترن بأخري دون تمييز في محاولة لرأب صدع أصابه.

بعد عودة من رحلة صيد طويلة ، أصيب منها بمرض جنسي عضال قال أنه برء منه.

هجرها بدوره ليغرق في الخمر حتي أذنيه ، وأصبح لا يطيق رؤية الأجانب لاسيما الملونين.

... أدركت مغزى كلمات جينا علي السطح ... قلت لكوستا في هدوء ، وتركيز :

- كوستا أنا لم أهتم به علي الإطلاق ، وليذهب هو وعاهرته إلي الجحيم ... لكن إذا احتك بي مرة أخري ، فسأجعل جسده طعاما للأسماك ... عليه أن يفهم هذا.

- إيه يا فرعون ... سأتركك لتستريح ، وسنتحدث بشأنه فيما بعد.

تركني كوستا مغادرا الحجرة ، وتمددت علي الفراش ، ولازلت متمنطقا بالحزام الجلدي تتدلي منه مديتي الحادة متوسدة جرابها ، بينما صورة ألكسندر وهو يدفعني تتماثل أمامي إلي أن غلبني النوم.

* * * * *

البَـرد

أمطار الخريف تنهال علي رؤوسنا كأنما هي من أفواه قرب ... يتسلل الصقيع ببطء إلي أطراف مازالت تحن لدفء صيف تواري في حياء وخجل أمام بوادر مارد أبيض يجثم علي هذه البقعة من الأرض برداء ناصع قرابة نصف العام ، فيضفي علي كل شيء برودة قاسية تتجمد لها الأبدان.

تمنيت رؤية جبال الثلج العائمة في رعونة ، واستهتار تتدثر بالمياه الزرقاء فلا تبدو منها غير قمم متواضعة.

مرة أخري تلوح بذهني حادثة السفينة " تيتانك " ... رعدة ألمت بأطرافي ، وأنا أتخيل صراع ركاب أبرياء من أجل البقاء.

سمعت من جينا أننا سنترك بحر البرانتس إلي سواحل أفريقيا الغربية ... أيضاً قد تتجه السفينة حسب تعليمات عليا إلي الجنوب ، وأن سفينة التصنيع العملاقة " الأم" ستوافينا لاستلام حصة الصيد.

كان من الممكن أن يسعدني مثل هذا الخبر ، حيث أنعم بالدفء إلي جوار قارتنا السوداء ... لكن لن يغريني شيء لأظل علي ظهر نافيجاتر ... سأتركها إلي غير رجعة ، وأعود مع السفينة " الأم " ، وإن لم أصفّ حسابي مع اللعين ألكسندر ... أيضاً سأفتقد العجوز جينا ، وحميته ، وصخبه ، ولعناته.

قفزت إلي ذهني رائعة ... " هيمنجواي " العجوز ، والبحر ... قرأت هذه الرواية في صدر شبابي ، وهمت ببراعة الكاتب في تجسيد معاناة بطله الأوحد ... لقد كان العجوز يحب البحر والأسماك ... وُلِدَ ليكون صيادا ، فما أشبهه بعجوزنا جينا ... لكن أنا ابن الصعيد ... ابن إقليم أسيوط ، مالي والبحر ، والعواصف ، والثلوج؟! .. لقد نشأنا لنعيش مع العرق ، والطمي ، والذهب الأبيض ... ربما أردت استعاضة الأصل

والخضرة بالبحر ، وزرقة المياه ... لكن ليس بحال مع مجموعة أغلبهم موتورين معقدين ... مللت معهم الأسماك ، والمياه المالحة ، والرقعة المحدودة علي ظهر السفينة ... قسوة الطقس ، والجهد المبذول بما لا يتفق وطبيعة من لم يتعود مثل هذا العمل الشاق ... ثم ما أواجهه من عداء خفي من ألكسندر ، والمدى الذي يمكنني الذهاب إليه.

ألقي كل هذا بظلاله عليَ كقروي جنوبي ، فأفقدني بريق الحافز لجوب مثل هذه البقاع البعيدة عن العمران ... قد أتجه إلي أحد مصانع معدات الصيد ، وقد أقنع بفترة التدريب هذه.

قال كوستا ، أنه يهيم بحياة البحر تملصا من مشاكل الأرض ... له زوجة بكل مكان تطأه قدماه ... مورمانسك ، وأرخانجلسك ، وريجا بالشمال ... ثم أوديسا ، وسيفاستوبل ، ونوفوراسيسك بالبحر الأسود ... وأخيرا مخاتشكالا ، وباكو ، وأستراخان ببحر قزوين.

سيترك نافيجاتر أيضاً إلي حيث الدفء بالجنوب إلي أستراخان ، فهو يعيش لنفسه فقط... كل ما يهمه أن يجد منزلا دافئاً ، وطعاما ساخنا ، وامرأة يقضي معها وقتا طيبا.

عادة ما يبرق لزوجته التي سيحل عليها ، حتي لا يفاجأ بعشيق يحتل مكانه ... هذه حياته فليهنأ بها.

... إنما أي شيطان يدفع بي للمضي علي هذا النحو؟ ... أهو شيطان المغامرة ، والتطلع إلي المعرفة كما أوهم نفسي؟ ... أو ما أبديه للآخرين كرغبة في الحصول علي درجة علمية رفيعة؟.

... الحقيقة أني لا أعرف تماما ماذا أريد؟!!

ربما أحن إلي الاستقرار ، والدعة ... إلي الأرض ، والخضرة ... ربما أيضا أتوق إلي الأسرة التي حرمت منها... أبي الذي لم أره ، ولم أنعم برعايته ... أمي التي عاشت الشطر الأكبر من حياتها دون زوج تقاسمه متاعبه، وأفراحه ... لعلني أطمع في تكوين أسرة أصونها ، وأحميها.

... إذن ... ما الذي دفع بي إلي نافيجاتر ، وآخر بقاع العالم؟

كنا ننظف سطح السفينة في يوم النظافة نصف الشهري ... هجعت الأوناش ، وطوت أجنحتها ... صمتت أحبال الصلب ، فلا صرير ... سكنت البكرات الحديدية دون قعقعة ... كف جينا عن سبابه ولعناته ، ولو إلي حين ... كما اختفي الوقح ألكسندر.

حذاء مطاطي أبيض اللون يصل إلي ما تحت ركبتي تحررت به ، ولو ليوم واحد من حذاء العمل الطويل الذي يصل إلى قرب التقاء الفخذين إلا قليلا.

طرحت عني ملابس الصيد جملة ... أقبض علي خرطوم الحريق بكلتا يدي لأغمر السطح بالماء المالح المتدفق بقوة ... أمامي كوستا بفرشاة ذات يد طويلة يحركها للأمام والخلف بجدية ... من خلفي أرتين الأرمني بممسحة لها حافة مطاطية.

السترات المكسوة من الخارج بطبقة رقيقة عازلة مزودة ببرانس تغطي الرؤوس لتمنع وصول المياه إلي ملابسنا ، ومن ثم أجسادنا ... حقا لا تسلم أوجهنا أبدا من الرذاذ.

... وافانا ميكانيكي من غرفة الآلات يضع علي وجهه كمامة من قماش أبيض ... يداه محشورة داخل قفازات مطاطية يمسك بدلو به مسحوق مطهر كريه الرائحة ظننته كلور جاف ينثره خلف أرتين.

مؤخرة السفينة تنخفض بشكل حاد لترتفع المقدمة بفعل الأمواج العالية ... أنظر حولي فلا أري سوي المياه الزرقاء ، وكأنما السماء وندت ، ثم تعود فترتفع فلا أري إلا السحب الداكنة ، وكأني أقف بينها.

خفت حدة الأمطار ، وزأرت الرياح العاصفة ، ونفذ الصقيع إلي عظامي.

كدنا ننتهي من نظافة منطقة الصيد المكلفين بها ... بقية البحارة منهمكون في نظافة نواح أخري من أرجاء السفينة.

قال كوستا إن حمام السُاونا سيعمل اليوم أو غدا علي أقصي تقدير ... لم أنعم بهذا الساونا من قبل ... قال أيضا أن الأسر الفنلندية بـ " اسكندنافيا " ، يدخلون السَّاونا رجالا ، ونساءً دونما شيء يسترهم ... يرونها عودة إلي الطبيعة.

آها ... لقد كنا نفعل ذلك الشيء كصبية صغار بالقرية وقت انحسار فيضان النيل عن الأراض الزراعية ، ولم نر بأسا وقتها ... لكن ليس بعد أن أصبحنا مكتملي الرجولة ، كما أن الفتيات لم يشاركن أبدا ذلك العبث الطفولى.

تساءلت ، وأنا أبتسم :

" تري لماذا لا نفعل ذلك الآن ؟... أهو الحياء ، أم الحرام ؟ ... أم كلاهما معا؟ "

لذعات البَرْد تنال مني بشدة ... آثرت أن أنهي ما نحن بصدده ، فتحركت بسرعة كأني أحث الآخرين ، وإذ بحبيبات صغيرة كأنها حصى رياح الخماسين تلطم وجهي ... تلفتُ في دهشة ، وتبينت أنها " البَرَدْ " حبات الثلج المتبلورة ... ضحك كوستا ، وصاح :

- إيه يا بن الشرق ... ربما لا تري هذا في بلدك ... إننا ندعوه " الذباب الأبيض".

ازداد تساقط حبات الثلج حدة لتطلم الأوجه في عنف مع عصف الرياح ... و ... تجهمت.

- هيا يا فرعون ... إغلق صنبورك ، ودعنا نذهب ... " قال كوستا ضجرا"

أقفلت الصنبور ، وطويت الخرطوم ، ثم وضعته في مكانه.

كان كوستا يساعد أرتين بممسحة ، فتناولت أخري ، وانهمكت معهم في تنظيف السطح ، كي يتابع الميكانيكي نثر مسحوقه الكريه خلفنا.

* * * * *

الأرمني أرتين

أعتقد أن بريق الماس فجَر فضولي منذ كنت بالصف الثالث بالمدرسة ... تجاوزت وقتها العاشرة من العمر ببضعة أشهر ، وبالطبع لم أعرف أنه ذلك الحجر الكريم ... بيد أن تلك الأشياء الزجاجية الصغيرة المضلعة غير المستديرة ككرات الزجاج التي نلعب بها أثارت انتباهي ... بريق أخاذ ذو ومضات تثير الإبهار والتساؤل ... تخيلت أن بداخل قطع الزجاج الغريبة هذه ، شيئاً سحريا يخصني ... يومئ لي لأن أدنو منه ... أمسك بتلابيبه ... ألتصق به ... و... ألا أفرط فيه ، رغم أن ومضاته تلك دائماً ، وأبدا ما تجاهلتني في الظلام ... لزمت الصمت تماماً ، وما تحدثت لأحد عن قطعي ، أو سمحت لأحد غيري برؤيتها وتفقدها.

أتذكر جيداً ذاك الطفل المعاق جليب ، ابن الأسرة اليهودية الوحيدة بشارعنا ، وأول قطعتين زجاجيتين غير مكورتي الشكل حصلت عليهما منه ... قال عنه الأولاد الأكبر مني سناً ، أنه يصنّف تحت اسم "الطفل المغولي" ... ولم أعرف وقتها أي شيء يعنون!!! ... قالوا أيضاً أن أباه ثمل ذات يوم وانتحر بأن شنق نفسه.

دائماً ما كان يصحبه جده العجوز اسبرنجل تيما فييف في نزهات ما بعد الأصيل حتي جادة الكورنيش ... تجنب الأولاد اللعب معه وازدروه ، وما صادقوه مطلقاً ... تساءلت من جانبي عن سبب قطيعة الأولاد ، أهي تقاطيع وجهه الغريبة ، وحديثة الذي لا يكاد يبين ؟... أم كونه من أسرة يهودية منغلقة علي نفسها ، وبالتالي فهي أسرة غير مرحب بها؟

... صنّفت كراتي الزجاجية ، وصففتها بساحة الـ "برجولة" الصغيرة بحديقة منزلنا ... تركت باب الحديقة مفتوحا لتخرج الكلبة الصغيرة "جوركا" في جولتها اليومية خارج المنزل حتي لا تعيقني عند العودة عن لعبي ... كان جليب بصحبة جده في

عودة من نزهة ما بعد الأصيل ... لمحني بساحة الـ"برجولة" فالتصق إلي جوار مصراع الباب المفتوح ... رغبة مشاركة في اللعب تكاد تنطق بها حركات الولد ، ومحاولات غير مجدية من الجد لإثناءه عن وقفته ... لجأ الجد إلي إغراء وعود شراء "جيلاتي" ، شيكولاتة لم تجد نفعاً ... هششت للولد المنبوذ من أنداده ، ودعوته للعب معي فدخل في التو ملبيا دعوة غير مسبوقة ... بدا علي وجه العجوز ارتياحا ظاهرا عبَّرت عنه ابتسامة كشفت عن أسنانه الصناعية المنتظمة ... طلبت من الجد تيمافييف ، ألا يزعج نفسه بشأن جليب ، ويدعه يلعب معي فسأصحبه إلي منزله عند الغروب ... سر العجوز كثيرا ، وتركنا وهو يثني عليَّ كولد مؤدب.

قسّمت كراتي الزجاجية بيني ، وجليب لنبدأ لعبنا ... هناك كرة يتيمة بداخلها رسم يشبه وردة حمراء زاهية اللون أوثرها علي مثيلاتها ... لاحظت أن ما يشبه خطا منحنيا طرأ عليها يمر بالرسم الداخلي ... قالت والدتي إنه شرخ ينبيء بكسرها عند أول اصطدام لها بأخريات ، وحذرتني بأنها قد تدمي أصبعي إذا كسرت ... أحزنني هذا ، لكن الخالة يلينا التي تعمل في مصنع الصوف الزجاجي ، والتي أمدتني بالكرات ، وعدت أنها ستحاول جلب مزيد من كرات ذات ورود مختلفة ... كنت أحب خالتي هذه ، إذ دائماً ما تخصني باهتمامها ، فلم يكن لها أولاد.

لاحظ جليب أنني جنّبت هذه الكرة بعيداً باحتراس فسألني ... لم أشأ إخباره بما قالته أمي ، فادّعيت أنها كرة ثمينة يجب الحفاظ عليها ... زيادة في إبهاره ، أمسكت الكرة الزجاجية بحرص ، وقربتها من وجهه لأريه ما قالت عنه أمي كأنه شيء فريد ... سقطت أشعة الشمس علي الكرة فومض الشرخ الداخلي بما أثار إعجاب جليب ... قال إن جده يحتفظ بقطع زجاجية كثيرة مختلفة الأشكال ، ويخبئها في مكان لا يعرفه سواهما ...أضاف أن هذه القطع تومض في الضوء ، إلاّ أنه ليس بداخلها مثل هذه

الوردة الحمراء الزاهية ... راق لي اقتناع جليب ، وأسعدني إطراؤه لكرتي الزجاجية ... همست في أذنه بزهو ، أنه لا يوجد في المدينة بأسرها ما يماثل كرتي هذه.

رغب الولد في تلمُّس الكرة ، أو إمساكها فضننت عليه ، وأوسدتها جيبي.

لدهشتي الشديدة كاد الولد أن يبكي ، فأشفقت عليه ، وكدت أن أمنحه الكرة حين فاجأني :

- إن أعطيتني الكرة الزجاجية ذات الوردة ، فسأعطيك إحدي القطع الزجاجية التي تومض في الضوء ، ويخفيها جدي.

كدت أضحك لسذاجته ، غير أني بادرته قائلاً :

- يمكنني أن أعطيك كرتي التي لا مثيل لها ، مقابل قطعتين مما يخبئه جدك.

وفت الخالة يلينا بوعدها ، وغدا لدي الكثير من الكرات الزجاجية التي بداخلها ما يماثل وروداً حمراء ، وزرقاء ، وصفراء ... أبدلت البعض منها بقطع جليب غير الكروية ، والمزودة بأسلاك صفراء ... اكتشفت من بينها أقراط ، وخواتم ، ثم بروشات مثل ما لدي الخالة يلينا ، وتزهو به أمام أمي ، والأخريات ... إحساس بأن ما بات لدي ، أفضل كثيرا مما لدي الخالة ، إذ أن بعض القطع أكبر وأجمل.

ذات يوم مات الجد تيمافييف ، وهجرت أسرة اسبرنجل المدينة بأسرها ... قال بعض الجيران أنهم هاجروا إلي إسرائيل حيث أقارب لهم.

حافظت علي كنزي في سرية تامة دون أن يعرف أحد شيئاً عنه ... قالت أمي ذات يوم ، أن خالي أرتين الذي سُمّيت باسمه يعمل في صقل الماس في يريفان ، وأنه بصدد افتتاح متجر كبير للمجوهرات في بيروت حيث جالية أرمنية كبيرة بلبنان ... دأبت أمي علي الفخر بأخيها واسع الثراء أمام أبي ، وقالت أنه يغير سيارته

الـ"مرسيدس " كل عام بأخري أحدث ... و... وكان هذا يغيظني من أمي التي تصف أبي دائماً بقلة الحيلة ... و... كرهت خالي أرتين هذا قبل أن أراه.

..... فاجأنا الخال أرتين ذات يوم بحضور غير متوقع ، وتاهت أمي به فخراً ، وفرحا ... رجل ممتلئ الجسم متوسط الطول كبير الشبه بأمي ، يضحك بصوت عال ، ويبدو متفائلاً إلي أقصي حد ... كل ما فيه يعكس صورة مضادة لما عليه أبي دائم الصمت طويل القامة ، قليلاً ما يبتسم ... كان أبي صانع جلود متميز يعمل بمصنع حكومي لا يملك سوي راتبه الشهري ... أما عن حالتنا الاجتماعية ، فلم تكن بالسوء الذي يحلو لأمي أن تصوره ... حقا لم يكن لدينا سيارة ، لكن لدينا منزلا جيدا ، وحديقة رائعة يعتني بها أبي بحرفية ذات فنية عالية.

قال خالي ، أنه جاء خصيصاً ليدعونا لحضور فرحه ، إذ بلغ الأربعين من عمره ... أضاف في شيء من زهو ، أن الفرح سيكون في يريفان حيث بيت العائلة بعدها سيطير وعروسه إلي بيروت حيث متجره الجديد.

استقر بي المقام في يريفان لدي جدي لأمي ، والذي لم أحبه كثيرا ، فقد كان مثل أمي دائم الفخر بابنه الناجح ... حازت صناعة الحلي ، والمجوهرات علي كل اهتماماتي بعد الدراسة لأفهم أسرارها وألم بكل خباياها ... لم أنس أبداً أبي الذي يعمل في المصنع الحكومي في تفان مذهل ، فلا أدع شهرين متتاليين يمران دون أن أقوم بزيارة أسرتي ... تنفرج أسارير أبي ، ويعود لطبيعته التي أعرفها ... يظهر البشر في عينيه ... يعنيني باهتمامه وطرقه أسلوب حياتي والخوض إلي دقائقها ... يجد نفسه في شخصي ، وأتفاني في حبه ، وتقديره واحترامه...

أشعر أنه ازداد نضارة وحيوة ، وشبابا أثناء تواجدي معه وإلي جواره.

تغرقني أمي بأحضانها وقبلاتها ... تنظر إليَ متفحصة ، وتتيه بإبنها الشاب ملء الأبصار ... تهتم بطعامي ، وملابسي ... تسألني عن أبيها ، وأمها ، ومنزلهم الكبير في يريفان ... عن الخال أرتين ، وأخباره ، ومتجره الكبير في بيروت ... أجيبها بإسهاب كي أسعدها ... امرأة مازال عقلها وقلبها في بيت أبيها.

رغم توفيقي في دراستي ، إلاّ أن المؤهل الجامعي ما كان كل هدفي ... وما إقامتي في يريفان إلا تقربا ، وتواصلا مع العائلات الثرية وعرض خدمات ... ذهابي لزيارة والدي ، تتضمن من خلالها لقاءات وعائلات يهودية ... جانب يرغب في مزيد من ثراء تحت أي مسمي ، وجانب آخر يود النزوح عن الاتحاد السوفيتي بممتلكات

خفت ثقلاً ، وغلت ثمنا إلي إسرائيل أرض الميعاد ... الماس ، والأحجار الكريمة لغة مشتركة بين طرفين لا يثق أي منهما في الآخر ... وكان مما لابد منه وجود ثقة بينهما ، والرجل الثقة الذي لا يلفت الأنظار ، هو أرتين كركوريان ... مزيد من أحجار كريمة ، ودولارات أمريكية تأخذ طريقها إلي مخبأ سري بمنزلنا لا يعرفه سواى.

... في زيارة روتينية ، لاحظت انزواءة من أبي ، وصمتا ... أحزنني أن أراه علي هذا النحو ... أعرف أن لأمي اليد الطولي في بلوغه هذا الحد من الهم ... سمعت همسا يدور عن مصنع جلود يرغب خالي في إنشائه بلبنان علي أن يعمل أبي لديه هناك ... جلست إليه علي إنفراد ، وقلت مهونا عليه الأمر :

- لا أحب أن أراك حزينا مهموما .. تري ما الأمر؟

أشار بيده تجاه المطبخ حيث توجد أمي ، وقال هامسا :

- عدم قناعة ورضا ... لا أريد العمل لدي خالك يا بني ... أن يعمل الإنسان لدي الدولة ، أكرم كثيرا من العمل لدي شخص بعينه.

قلت وأنا أتكئ علي كلماتي :

- ومن قال أنك ستعمل لديه ... إنك ستعمل معه.

ابتسامة ساخرة حقني بها ليعقب :

- لو أن لدي رأس مال ما انتظرت لأحظي بوصاية ذلك المتغطرس خالك ... أنا أعرف الطريق جيدا إلي بيروت ، وأنت تعرف مدي حذقي ، وحبي لحرفتي ... لكن ليس بالأماني تنصلح الأحوال.

قلت بثقة ، وتأكيد علي كل كلمة أرددها :

- ستذهب إلي بيروت يا أبي لتعمل مع خالي في مصنع الجلود مقابل أن يكون لنا ثلاثة أرباع المصنع ... نصف لي مقابل رأس المال ، وربع لك نظير عمل وإدارة ، أما الربع الأخير فهو له مقابل الإنشاءات.

دهشة واستغراب ، وترقب انتظارا لتفسير ... أضفت في حمية :

- إذا قبل خالي ما نعرضه ، فأهلا به ، وإلاّ فسيكون المصنع بيني ، وبينك مناصفة ... رأس المال علي عاتقي ، أما العمل والإدارة فهو شأنك.

رأيت بهجة الدنيا بأسرها في وجه أبي ... فرحها .. رغدها ... سعادتها ... هناءتها. احتضنني بشدة حتي خلت أن جسدينا امتزجا وكونا جسدا واحدا ... لمحت دمعات انحدرت من عيني أبي تركها تسقط علي وجنتيه ... ضحك ملء شدقيه ... قهقه بصوت عال.

خرجت أمي من المطبخ مستفسرة ... واجهها صائحاً :

- سأسافر إلي بيروت ، وسأعمل بمصنع الجلود بكل ما أملك من قوة دون وصاية منك أو من أخيك.

... تركها مشدوهة غير متفهمة للأمر ، واتجه إلي حديقته التي أهملها عندما كان متكدر المزاج ليشذبها بعناية ، وحرفية ذات فنية عالية ... كانت له تلك اللازمة معبرة عن حالته النفسية.

قبل خالي ما عرضناه عليه دون لجاجة ، وإن لم يخف دهشته ، وعجبه.

قضيت الفترة التالية ، وأبي في وضع تصميمات المصنع واحتياجاته ... آلات ... معدات ... خامات ... عمالة ... كميات إنتاج ... منافذ توزيع .. و... الأهم جدوي المشروع إقتصاديا.

... كان علينا الإنتظار بضعة أشهر حتي ينتهي خالي من إقامة المبني واستكماله ... بلغت معنويات أبي عنان السماء ، وتمثل هذا في عنايته بالحديقة حدا فاق كل توقع.

... تعاقدنا علي الآلات ، وخلال ترتيب شراء المواد الخام ، زلزلت الأرض زلزالها في لبنان ...

حرب أهلية ضروس راح ضحيتها أحياء بأكملها ... منشآت غدت أثرا بعد عين.

ضاع متجر خالي أرتين ، وسُويت منشأته الجديدة بالأرض ... فرّ الرجل من لبنان عائدا إلي أرمينيا ناجيا بحياته ... انمحت الغطرسة ، ووند التفاؤل ، وركبه الهم والغم ... غدت خطواته بطيئة مضطربة ، وانحني ظهره كأنه شخص آخر في السبعين من عمره.

... واتتني أخبار، مفادها ... أن أعين رجال المباحث تتعقبني ، إثر وشاية من يهودي ملعون عن مزاولة نشاط تجاري غير مشروع ضالع فيه ...

قال أبي أنه عليَ الاختفاء عن الأنظار لفترة في بقعة بعيدة حتي تكف أعين المطاردين عن ملاحقتي.

... وهكذا ... وجدت نفسي علي ظهر الباخرة "نافيجاتر" .

* * * * *

خطورة

" من يعش طويلاً ، فإنه يرى كثيرا ... لكن من يسْعَ متجولا يرى أكثر"

... معني لمثل شعبي تناقلناه عن أجدادنا ، وقد آمنت به.

تناقلنا أيضاً أن صيد السمك رزق غيبي !!!

... وتخيلت كيف وقف الكثيرون من الأجيال السابقة ضد كروية الأرض ، ودورانها حول نفسها، وحول الشمس ... وفقد العالم الكبير "جاليليو" حياته لحقيقة علمية مؤكدة أنكرها معاصروه.

... هذه الحقيقة أخبرنا بها الحق سبحانه ، وتعالي عن طريق رسوله الكريم محمد صلي الله عليه وسلم ، منذ أربعة عشر قرنا مضت ... قال سبحانه :

" والأرض بعد ذلك دحاها*"

بما يفيد بيضاوية الأرض ... وقال أيضاً :

" ... رب المشارق والمغارب**"

بما يفيد دوران الأرض حول نفسها.

... وقبل أن يدور "جاجارين" حول الأرض بمركبته الفضائية ، كان صيد الأسماك علما له أسس ، وقواعد ... ثم طرق ، وابتكارات ، وإنجازات ، فليس إلقاء الشباك في المياه انتظارا لوقوع الأسماك بها صيدا اقتصاديا بالمعني القويم ... هناك الأساليب العلمية الحديثة للبحث عن أسراب الأسماك ، والمضي إليها لصيدها ... لا مجال للتواكل في عالم اليوم مع أزمة الغذاء ، وزيادة السكان فوق كرتنا الأرضية الصغيرة ، والتي فاق تعداد قاطنيها المليارات.

* سورة النازعات

** سورة المعارج

... وما كنت لأصدق بإمكانية الحصول علي أكثر من خمسة ، وعشرين طنا من الأسماك دفعة واحدة ، إلاّ بعد ظهور الكيس الشبكي ممتلئا بعد ساعة واحدة من إلقائه في مياه البحر.

بهرني إنجاز العلم ، وتقنيات التكنولوجيا لأتسمّرَ في مكاني بمنطقة عمليات الصيد فاغر الفم ، قعقعت بكرات الونش الأرضي ... تهافتت طيور النورس ... صرّت أحبال الصلب ... و ... أنا مأخوذ بروعة الإعجاز البشري.

صرخ جينا حانقاً :

- أنت أيها النسر اللعين ...

نظرت إليه مستوضحا ، فلم أتقاعس عن عمل، أو ارتكبت خطأ يذكر.

كان يقف علي الكوبري الذي يعلو الونش الأفقي مشرفا علي عملية إخراج الكيس.

- إذا قطع حبل الجر فسيمزقك إربا ... هيا إلي الونش العلوي.

تعلمت ألاّ أعترض علي ما يقوله جينا ... لم أتفوه بكلمة ، وبادرت بالصعود إلي الونش ، وأنا أرثي لحاله ... كثيرا ما يبالغ الرجل في حذره ، وبالتالي أوامره ، و إلاّ كيف يقطع حبل صلب قطره ثمان عشر ملليمترا ؟!

تابع جينا صياحه :

- نسر ... إنزل بالخطاف إلي أسفل.

ثم متجها إلي كوستا :

- كوستا ... أشبك الخطاف بذؤابة الكيس ، فالحمولة أكثر من قدرة ونش الجر.

كان زميلان بالجانب الآخر يفعلان الشيء ذاته.

ما كاد الخطاف ذو القفل الحديدي يعلق بذؤابة الكيس ، حتي هممت بدفع يد التشغيل ليعمل الونش العلوي في سحب الكيس ... وإذ بي أسمع توترا ، واهتزازا رهيبا ، ثم فرقعة مدوية.

... انقطع حبل ونش الجر الأرضي ، وتلوّت ذوائبه مثيرة الشرر لارتطامها بأرض عمليات الصيد ، والحاجز الأيمن لجانب السفينة.

صعقت ، وانتفض جسدي ، وارتعشت أطرافي ، وأنا أري عربدة زوائد حبل الصلب حيث كنت أقف تماما.

لم يتح لي متابعة ما حدث بعدها ، إذ أصبح الكيس مرتكزا من جهة اليمين علي حبل الونش العلوي الذي أعمل عليه ، وجنح إلي الجهة المقابلة.

نظرت إلي جينا الذي أشار بأصبعه إلي سابق مكان وقوفي ، وشبه ابتسامة ساخرة رسمها علي جانب فمه تحمل كثيرا من معان يسهل تأويلها.

تعالت دقات قلبي ، وجف حلقي ، ولم أستطع ازدراد لعابي.

اعتلي كوستا الونش الذي يليني ، وبدأ بحركة منتظمة متوافقة في سحب الكيس من جانبنا ليستقيم وضعه ... نزل جينا إلي أرض عمليات الصيد ، وتابع تنفيذ تعليماته بصرامة :

ـ كوستا ... توخي الحذر ، وتوافق مع النسر ... لا تتسرع واجذب الكيس برفق ... طاقم الجانب الأيسر يتمهلون في الرفع ... أحد الأوناش اليسري ينضم إلي الجانب الأيمن عن طريق كوبري.

أمكننا السيطرة علي الكيس وتهادي علي المنزلق بمؤخرة السفينة ببطء شديد ... حرر جينا الونش الأيسر الآخر ليثبت الخطاف بمنتصف حبل الكيس من أعلي.

فوجئت بالقبطان وصوته يدوي من خلال مكبر صوت يدوي محتلا موقع جينا السابق فوق الكوبري ...

هُرع الرجل بدوره إلي منطقة عمليات الصيد ، فالكيس في خطر ... لا تهمه حصيلة العملية السمكية في شيء ، فدائما ما يستطيع تعويضها بعكس الكيس الشبكي.

تابع القبطان إرشاداته ، وقد حمد لجينا إنجازه ... بادر جينا إلي بكرة إضافية علي جانب الونش الأرضي ، ومد حبلا من الصلب إلي طرف الكيس الأيمن ... حرص جينا أن تعمل كافة الأوناش معا لرفع الكيس.

تركنا القبطان مغادرا موقعه بعد أن اطمأن علي الكيس ، والشحنة.

تنفسنا الصعداء ، وهبطت إلي أرض عمليات الصيد ، ومعي كوستا ... سحبني جينا من ذراعي ، وانتحي بي جانبا ، وقال ضاحكاً :

- مازال أمامك الكثير لتتعلمه يا نسر.

شعرت بالامتنان للرجل الكبير جينا ، وقد تخيلت أشلائي ، وأحشائي مبعثرة علي أرض عمليات الصيد.

- شكرا يا جينا ... شكرا علي كل شيء.

خرج صوتي واهنا.

غيرنا أحبال الصلب للونش الأفقي بأخرى جديدة ... استدعاني جينا لأهبط مع كوستا إلي العنبر السفلي حيث تصنيف الأسماك ، فالكمية أكبر من استيعاب العاملين هناك ... أوضح لكوستا ، أننا سنقضي باقي الوردية ، وكذا الوردتين التاليتين هناك ... وأن عملية الصيد ستقتصر علي الوردية الثانية ... أشعل كوستا لفافة تبغ ، ووضع يده علي كتفي ، وردد :

- هذا يعنيورديتان راحة من عمليات الصيد يا فرعون.

... ومضينا إلي العنبر السفلي.

كوستا

- هل لك فتاة بعينها يا فرعون؟

سأل كوستا ، وهو منهمك في تصنيف الأسماك حسب حجمها ... هززت رأسي سلبا، وأنا ألقي بالأسماك المخالفة في فوهة أنبوب بيضاوي المقطع ينتهي إلي مصنع مسحوق الأسماك.

يفصلني عن كوستا المواجه لي ، حاجز معدني ينزلق فوقه سير مطاطي أسود يمد عنبر التجميد بالأسماك من مخازن التشوين المؤقتة.

- هذا عين الصواب ... إنك تجدهن في كل مكان كالأوراق المهملة المتطايرة ... أيضاً لاغني عنهن ... لعلك تفضل الشقراء!

حدقت فيه مبتسما ... رجل ذو ثقافة مقبولة ... دمث الأخلاق حنكته الأيام ... ارتحت للتعامل معه خلافا لما ظننته من قبل ... أضاف في شبه تأكيد :

- إن الأسمر يحن للشقراء ... هذا طبيعي ... لكني أفضل الحمراء.

لم أفهم ما يعنيه فتساءلت :

- ماذا تقصد بالحمراء؟

- ذات الشعر الأحمر ... ستجدها أكثر من رائعة ، فهي تجمع بين السوداء ، والشقراء.

ألقيت ببعض الأسماك في فوهة الأنبوب ، وأنا أضحك ملء فمي :

- منك نستفيد يا "كازانوفا" القرن العشرين.

تابع حديثه في هدوء ، وثقة :

- لك أن تأخذ بكلامي فلي سابق تجربة ، ودراية.

صمت قليلا ، ثم ابتسم ، وإذ بتعبيرات وجهه تتغير ليقول في سأم :

- اسمع ... معظمهن عاهرات ... يجب أن تعرف هذا.

تحفظت من رأي كوستا ، وشعرت بالضيق لأتململ في موضعي .. لم يكن حديث كوستا مبعث ضيقي في الأصل ، إنما هي جلسة مملة أمام سير مطاطي كئيب ... وكرهت تصنيف الأسماك هذا ... أنه عمل يليق بالفتيات ، فهن الأنسب لجلسة كهذه ، ومواصلة عملية تصنيف سخيفة.

ابتسمت عند التفكير في الفتيات ، وتساءلت :

" ما لهذا الرجل يصفهن بالعاهرات ؟ "

... تذكرت أني سمعت وجهة نظر لأحدهم في هذا الشأن مؤداها :

" إن الرجل يرضيه أن تكون المرأة عاهرة معه في الفراش ، حتي لو كانت زوجته"

... وحسبته محقا في وجهة نظره.

انتظرت أن يتابع كوستا حديثه ، لكنه ظل صامتا كأنما ذهب بذهنه بعيدا ... أردت أن استحثه لمواصلة الحديث ، فما نقوم به هو الملل ذاته ،ولابد لنا من أنسة.

- وماذا ستفعل في استراخان يا كوستا ؟

- لا جديد يا فرعون ... سأمضي إلي زوجتي هناك قبل أن أذهب للعمل في بحر قزوين ... لم أرها منذ عام ، ولي منها طفلة بالصف الأول لها شعر أحمر كوالدتها ... لا شك أنها ستكون عاهرة جميلة ...

ها ... ها ... ها .

انتابني تقزز من الرجل علي نحو مفاجئ ، ونظرت إليه حانقا ... لمحت علامات حرج بدت واضحة علي وجه الرجل ، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ، واكتسبت تقاطيع وجهه مسحة جد ليبادرني :

- لا تمتعض هكذا يا فرعون ... إن هذا ما يدفعنا إليه الشيوعيون ، فلا موضع هنا لفضيلة ،ولا أدري كيف تكون هناك عفة دون وازع من مكارم أخلاق ، وتعاليم دين ... ألا تراهم يا رجل يجاهرون بعدم وجود إله ... حسنا ... أنا أؤمن بان هناك إله بصورة أو أخرى ، فقد سمعت حديثا دار بين مربيتين تقدم بهما السن بملجأ للأيتام وافق دخيلة نفسي ، فلم يكن لي أب أو أم أتعلم منها ... ذهبا وقودا للحرب ... هذا حال معظم جيلنا ، وكما تري لا نعلم أي طقوس لعبادة ، بل لا نعرف ماهية الدين أصلاً ... كل ما نعرفه أن العمل الجاد لرفعة شأن الوطن هو أقدس العبادات.

شعرت بالإشفاق علي الرجل ، ورأيت ألا أتجني عليه ... حاولت أن أبدو لطيفا معه ،فقلت في رقة مصطنعة :

- إذن فلتقرأ يا كوستا.

نظر إليَ دهشاً كأني تفوهت بمعمية ما.

- ماذا بك يا رجل ؟ ... لقد علمونا أن الدين أفيونة الشعوب ، فهل تجد كتابا يحدثك عن عقيدة ما أو دين ؟ ... إننا نقرأ عن الموسيقي ، والرقص ، والباليه ... عن الفلسفة ، والأدب ، والفنون الراقية ... أما ما نتحدث بشأنه فقد عفي عليه الزمن ، علي الأقل من وجهة نظرهم.

مثلت تعبيرات وجه كوستا تجسيداً حيا ليأس ، وضياع نفسي ... قلت له مهونا :

- إن الأديان ستظل إلي قيام الساعة يا كوستا ... ولو كنت مهتما بدارسة التاريخ لوجدتني محقاً ... لقد ولدت اليهودية وترعرعت بين أحضان أحد فراعين مصر العتاة ... ونشأت المسيحية في أزهي عصور الإمبراطورية الرومانية الطاغية ، تبشر بالتسامح ... وظهر الإسلام وسط مجتمع وثني متخلف ، فأنار أركان العالم ...

وما كانت الشيوعية وحيا سماويا ، وإنما هي من وضع وتدبير البشر ، وستنتهي حتما على أيد الشيوعيين أنفسهم ، فلا يصح إلا الصحيح ...

هكذا قال لنا التاريخ.

بآذان متفتحة ،وعيون يقظة ، ووجدان نهم متعطش للمعرفة ، كان يسمعني كوستا ، وخلته يتمني ألآ أنهي حديثي ... ساورتني رغبة في استرسال أعم ، وأشمل ... بيد أن جلسة مزرية ، وعمل وضيع أقوم به ـ من وجهة نظري ـ حالا دون ذلك ،

فاكتفيت بما سقته إليه في اقتضاب.

... صمت قليلاً كأنما ليستوعب ما قلته ، وتردد قبل أن يعقب :

ـ أتدري يا فرعون ... لقد ذهبت إلي كنيسة ذات يوم لعله عيد الفصح ... وجدت حشداً هائلا من الشباب من الجنسين ... قطعا ما ذهبوا بقصد الصلاة ، فقد كان هذا لسان حالي ... ذهبنا لنري ما هذه الكنائس ، وكيف هي ؟... أعجبنا ما بها من زخارف ، ورسوم ، ثم تلك الأزياء الغريبة للقساوسة وتراتيلهم غير المفهومة لنا ... لمحت سيدة مسنة تشعل شمعة ، وتضعها علي مكان مرتفع ، وحذوت حذوها ... شعرت براحة عميقة لا أدري لها سببا ، وراق لي هذا الإحساس الغريب الذي لم يخامرني من قبل ... ولم أذهب إلي هناك بعدها ، فأنا عضو بالحزب الشيوعي ، وحتي لا أفقد عضويتي ...

توقف كوستا عن الاسترسال في حديثه عندما وافانا رئيس غرف التبريد ، وطلب تحويل باقي الأسماك إلي مصنع المسحوق ، فليسوا بحاجة إلي أسماك في الوقت الراهن ، وأغلق باب الدخول إلي العنبر.

أدار كوستا رافعة ، فتحول اتجاه سير الأسماك إلي مصنع المسحوق ... انتحينا جانبا لنخلد للراحة ، وإن لم نغادر موقعنا.

تخيرنا ركنا غير بعيد من منصة التصنيف ، وانتقينا صناديق ثلاثة جعلنا من أحدهم منضدة لنجلس متواجهين ... لمحت علبة معدنية وضعتها علي الصندوق كمنفضة لفائف تبغ.

... كان كوستا منفعلاً ، ويدخن بعصبية ، ويرغب في مواصلة الحديث ، لذا بادرته :

- لكني قرأت عن الإشتراكية التي نادي بها ماركس ، ولينين ...و...

قاطعني ثائراً ، وإن خرجت كلماته همسا :

- أرجوك لا تحدثني عن هذه الاشتراكية ، فأنا أدري بها منك ...

تلفت الرجل حوله يمينا ، ويسارا حتي إذا وثق من عدم استرقاق أحدهم السمع

واصل:

- إن هؤلاء الشيوعيين الأوغاد تنكبوا الطريق الصحيح ، وباتوا كالبرجوازيين الذين شنتوهم ... إنهم يسرقون الشعب ، ويثرون من خلال مناصبهم ... إنهم أبناء الحزب الأوحد ، فلا معارضة ، ولا رائحة لديمقراطية ، بل دكتاتورية استبدادية عفنة ... كل مؤهلاتهم إجادة الكلام المنمق الرنان ، وشعارات مستهلكة لا طائل من ورائها ... لقد تعلم أفراد الشعب السرقة اقتداء بهم ... إننا نسرق الدولة ... نسرق أنفسنا ... هناك طرفة ساخرة تقول:

" إن الاتحاد السوفيتي أغني دولة ، فالكل يسرق ، ولم تنضب الثروة بعد ، فدائما ما تجد شيئاً تسرقه"...

أتعلم ... إنهم لا يعالجون بمستشفيات الشعب ، ولا يشترون احتياجاتهم من المحلات العامة ...

توجد مستشفيات ،ومحلات خاصة بالصفوة من أعضاء الحزب ... فأي اشتراكية هذه؟!.

ـ ولكنك عضو بالحزب يا كوستا .   " قلت مذكراً إياه "

ضرب بيده علي الصندوق الذي يتوسطنا محتجاً ،فطارت العلبة المعدنية من فوق الصندوق ، وسقطت بعيداً.

أعدتها ، وأشرت له بالهدوء ... خفت من صوته كثيراً ليواصل :

ـ أي عضو حقير أنا ... إني ما كنت لأعمل علي السفن التي تغادر مياهنا الإقليمية لو لم أكن عضوا بالحزب ... إني مجبر أن أكون شيوعياً ، ومعظمنا هذا الرجل ... إن الأعضاء الحقيقيين هم ممثلوا الـ " رايكوم " ، والـ " أبكوم ". (أعضاء لجان الناحية التنفيذية ،وأعضاء اللجان الإقليمية) أما أفراد الشعب ، فيغرقون في الفودكا ، والرقص ، والموسيقي ،والجنس ... لا وقت لديهم للتفكير في شيء ، فالصفوة من أعضاء الحزب يفكرون ، ويقرون الأصلح لشعب مغلوب علي أمره ...

إنهم كل شيء.

... بدأت أرثي لحال الرجل .. لقد أذكيت فيه نارا كامنة تحت رماد كراهية ... لم أجد ما أقوله ، فأشعلت لفافة تبغ ، وتشاغلت بنفث دخانها.

قطع كوستا حبل الصمت ، وقال من خلال نفثات دخان لفافة تبغه :

ـ لم يرق لك حديثي عن النساء ، والفتيات السوفيت من قبل ... لكني لست متجنيا ... يجب أن تفهم هذا.

في دولة السوفيت ، لا يهم أن يكون للزوجة عشيق ، ولا توجد فتاة جاوزت العشرين إلا وأجهضت أو تركت طفلا في ملجأ ، أو احتفظت بطفلها دون السؤال عن الأب ... إن الرؤوس الكبيرة ترتع بين نهود الفتيات و أفخادهن ، وكؤوس الخمور الفاخرة المستوردة ...لا يمكن لفتاة أن تمتنع عن عضو بارز ، أو رجل شرطة ، أو رئيس عمل.

إنك لا تعرف يا فرعون أنني أمضيت بالسجن عامين ... أتدري لماذا ؟

سأثقل عليك بحديثي ، لكن لا يوجد من أبثه همومي ، وأنا آمن.

إن زوجتي الأولي ، كانت زميلة بالمدرسة ... تحاببنا ، فنحن أبناء الملاجئ شريحة واحدة متماثلة لجيل ما بعد الحرب ... فقدت والديها مثلي ... تزوجنا آخر الأمر ... وجدت فيها أبي ، وأمي ، وزوجتي ، ثم ستصبح أم الأولاد .. أصل الأسرة التي لم أنعم بدفئها ، وأحن إليها.

لا أتذكر أني ضننت عليها بشيء ... حرمت نفسي من الكثير لأجلها ، فقد تجرعت مرارة الحرمان أيضاً ... رأيت بالاتفاق معها أن أعمل بالبحر لأسارع في توفير حياة كريمة بعيدة عن العوز.

... وقضيت برحلتي قرابة الستة أشهر في حرمان عاطفي أقسي علي نفسي من كل ما عانيت ... عدت بتجسيد حي لأحلام فاق لديها كل ما كانت تطمع فيه ... وجدت ينابيع أحاسيس ومشاعر تتفجر من داخلي أكبر بكثير من كل ما هو مادي وملموس.

صدمني أن أسمع بعلاقة لها مع أحدهم كدرت صفو كل المعاني السامية التي أكنها لها ... لم أطق صبرا أن يلوك الآخرين سيرتها لتنتقص من قدري كرجل ... واجهتها بما سمعت ، فلم تنكره ، بل تاهت فخرا بأن النائب العام للإقليم عشيقها.

ذهلت ... كدت أفقد صوابي ... تخيلت للحظة أني قاتلها لا محالة ...

... وكرهتها ... كرهت فيها كل شيء جميل أحببته ... رأيتها تجسيداً لأشياء مقززة اشمأزت منها نفسي ... لكن قبل كل هذا ، وذاك ... لماذا ؟

... نعم تساءلت لماذا ؟ ... إنه جرذ حقير ... جوال فارغ ... طبل أجوف لا يجيد سوي الكلام !!!

... ونسيت أن حواء تعشق بأذنها ... إنها أذن كبيرة تسمع ،وقليلاً ما تعي.

نفضت عني كل هذه المعاني المتدنية ، وأبعدت عني المرأة الحقيرة بلطمة أودعتها كل معاناتي.

لقد ذبحت الدنيئة كل المعاني السامية بداخلي ... وأدت كل الأحلام الجميلة عن المستقبل الأسري الذي عشمت فيه.

أوليت ظهري للخيانة ، وهجرت عش الزوجية ... آثرت البعد عن المنزل ، والمدينة ، فبالهواء ذرة من أنفاسها الكريهة ، وعلي الأرض أثرا لأقدامها الملوثة.

قررت المضي بعيدا عن كل ما يذكرني بها ... أن أغادر الإقليم بأسره ...

... لم يتح لي مغادرة المدينة يا فرعون ... قبل أن أضع قدمي بالقطار ، اعتقلني رجال المباحث بمحطة السكة الحديد ... أرسلهم الجرذ الحقير خلفي بعد أن أخبرته الفاجرة.

تهمة أعدت مسبقا لأحاكم صوريا ، وأودع السجن ...

لم أقوام ، أو أحتج ... علمت أني أناطح السحاب ، وأعصر الهواء ،وأصارع المحيط.

أتدري ما هو السجن بالاتحاد السوفيتي يا رجل ؟

امتهان الكرامة ... سلب الإنسانية ... إنكار الآدمية ... إنه الجحيم بعينه.

أغروقت عيناه بالدموع ... آثرت أن أخرجه من أحزانه ، فقت مواسياً :

- ليست كل النساء هذه المرأة يا كوستا.

أخرج منديلا مسح به وجهه ، وعاد إلي نفسه.

- اسمع يا فرعون ...لست ذلك الرجل الضعيف خائر العزيمة ... لقد قضيت العامين بالسجن كيفما اتفق ، ولملمت شعثي ... لقد نالت مني هذه المحنة ،وإن لم تحطمني.

أسقطت من حسابي كل ما حدث كأنه لم يكن ، وذهبت إلي "أوكرانيا " أبحث عن حياة جديدة ، ولأعمل بالبحر الأسود فلا مكان لي علي ظهر الأرض.

إندمجت في عالمي الجديد في شكل علاقات وصداقات ، يداعبني أمل الزواج ، والأسرة فمازلت صلبا رغم محنتي ...

مالي من شروط أو مواصفات بعينها في الزوجة ... تكفيني منها رغبة صادقة لتكوين أسرة حقيقية.

... وجدتها تهتم بي ، وتتقرب إلي ... تحلم مثلي في استقرار من خلال أسرة ... توافقت معها ، وذهبت لأعيش معها حيث تقيم ... كانت تعمل حارسة بمركز للأبحاث لا يبعد كثيرا عن المنزل ، حيث تقضي هناك يوما ، وليلة لتظل بالمنزل يومين ، وليلتين.

رزقت منها بطفل ، وطفلة أصبحا بلسما لجراحي ... عشت لهما ، ومن أجلهما ، ومضت حياتي هانئة سلسة ...

أعمل بالبحر ثلاثة أشهر ، لأعود إلي منزلي بكل الحب والشوق ... أقضي مع أسرتي عشرين يوماً كأسعد ما يكون الأب ، والزوج ،ورب الأسرة ... ألوذ بزوجتي ، وأرعي أطفالي ... أتذكر طفولتي المحرومة فأفيض عليهم من حبي.

تستعين زوجتي بابنة أخت لها فترة تواجدها بالعمل لرعاية الأطفال ... فتاة جميلة ، ومرغوبة لا تفكر في الزواج ، ولا تود الارتباط بأحد ... أهملتها أمها عقب وفاة

أبيها في حادثة ، وتزوجت بآخر كره الفتاة فعاشت مع خالتها.

لكن المصائب لا تأتي فرادي يا زميل ...

لحق بسفينتنا عطب جسيم بعد إبحارنا بعشرة أيام ... عدنا إلي الميناء بمساعدة قاطرة ضخمة ... حنق ، وسخط عَمَّ طاقم السفينة بشكل معد ، وكنت الفرحَ الوحيد بينهم ... سعدت للعطل ، والعودة إلي الشاطئ ...

دائما ما أفتقد دفء المنزل وصخب الأولاد ، وأحضان الزوجة، ونكهة طعام المنزل ... مللت البعد عن الأسرة في حياة بلا معني ... سأطلق البحر ، وأكفر بالفراق.

دهش الآخرون لطلاقة محياي ، وسروري دونهم ... كدت أصرخ فيهم قائلا :

" أنا أب ، وزوج ... رب أسرة حقيقية ".

لكنهم لن يفهموني ،وربما سخروا مني.

كنا قرب منتصف الليل بالميناء ... لم أطق الانتظار حتي الصباح بالسفينة ... لأنعم بأحضان الزوجة ، وأتملي برؤية الأولاد ... سيكون وجهي أول ما تصافحه أعينهم عندما يستيقظون ...

سنقضي كل الأمسيات معا ندفئ بعضنا البعض ... سأطعمهم ، وأستذكر لهم دروسهم ، وألهو معهم ... عودتي هذه المرة تختلف عن سابقاتها ، فلن أعود إلي البحر.

تسللت بخفة إلي المنزل ، وأحكمت رتاج الباب بهدوء ... ضوء خافت يصل إلي الصالة من المطبخ ...

حجرة زوجي موصدة ... ينساب من غرفة الأولاد شعاع ضوء باهت من خلال فرجة الباب.

ضغطت علي مفتاح إنارة الصالة فلم يسطع الضوء... خمنت أن المصباح معطوبا ... لا بأس ... سأبدله في الصباح ... هكذا أفكرت ... خلعت حذائي ،وهممت بوضعه حيث باقي الأحذية ... وقعت عيناي علي حذاء غريب ... دققت النظر ، فإذا به حذاء

لرجل.

مادت بي الأرض ... انهرت جالسا علي أقرب مقعد صادفني ... أعلم تماما معني تواجد الحذاء الغريب ... احتويت رأسي بكفي.

خرجت من حجرتها شبه عارية ،وفوجئت بوجودي ... بدرت منها شهقة مكتومة ،واضطربت علي نحو مفاجئ ... تلجلجت ،ولم تجد ما تقوله ، وإن جاهدت أن تتمالك نفسها لتسألني عن حضوري غير المتوقع ، وأنها كانت تنتظر برقية كعادتي تنبئها بموعد وصولي.

قمت متثاقلاً ، وأزحتها من أمامي ... دخلت حجرة النوم ، لأجد رئيسها في العمل يحتل مكاني.

لم أفكر في الانتصار لشرفي فأركب موجة عنف ،وأنال من المرأة الخائنة ، والرجل الذي سطا علي عرضي ... تذكرت زوجتي الأولي في فعلة دنيئة كهذه سبقتها ... لم أغضب لنفسي أو أثور لأنتقم ... فقدت الحقائق معناها إلاّ ما أراه مجسداً أمامي ... إنمحت الأمومة ،وضاعت الأبوة ، وتهدم كل شيء ... حزنت كما لم أحزن من قبل لتلاشي الأسرة ، وتبدد الحلم ... تحطمت بداخلي ، وأحسست في واقع الأمر أني تحولت إلي خيال لرجل كنته.

... مضت فترة صمت لم ينبس أحد خلالها بكلمة ... نفوس اضطربت ، وأجساد تململت احتقارا ،وخزيا.

وجدتني أضحك ،وأقهقه بصوت عال في هيستيريا ... لم أجن ... لا ... لا ... لكن شر البلية ما يضحك ... شده العشيق ،وتحيرت المرأة .. لم أسبها ، أو أمس عشيقها ، أو حتي أطرده .

ذهبت إلي المطبخ ، وفتحت زجاجة فودكا ،وأجبرتهما علي احتساء كؤوس الخمر احتفالا بالخيانة ، والعهر.

ظن الرجل بي الظنون ،ولمحت الخوف تنبض به ملامح المرأة ... ما غاب عن حسباني أنها صاحبة المنزل قبل كل شيء فإن لم ترق لي فعلتها ، فلأوليها ظهري إلي الفضاء الرحب دون أي عنف ... لقد وعيت درس المحاكمات السوفيتية من معاناة عامين في السجن من قبل.

... ولأول مرة لم أقبّل الأولاد عند استيقاظهما ... تركتها تذهب بهما إلي الحضانة في طريقها إلي عملها ، فقد كانت نوبتها.

قبعت في المنزل وحيداً أتمزق من داخلي كحيوان جريح ، وتساؤل يئز من حولي كطنين ذبابة لعينة...

" لماذا لم أنتقم من الزوجة الخائنة ،والعشيق؟ ... كيف تركتهما دون ان أنتصر لشرفي المدنس؟ ... لم تركت الرجل يمضي بسلام ، وقد انتهك حرمة منزلي دون عقاب جسيم؟".

... ومع كل تساؤل تتراقص أمامي أيام سجن رهيبة طويلة كئيبة من أجل لطمة لعاهرة مثلها من قبل.

تري ما المصير لو نفذت ما أندم علي عدم فعله ؟!!

فلتذهب المرأة ،وكل النساء الخائنات إلي الجحيم ... لألقي بكل ما يربطني بها خلفي ، وأمضي إلي الضياع ، والحيرة فهو أرحم.

طفي علي السطح خيال الأولاد ... أحسست بالحسرة لأجلهما ... ما جريرتهما إذا كانت الأم داعرة؟

لو يتح لي القانون حضانتهما ، لكنت الأب ، والأم ، والحضانة ،والمدرسة ، والحديقة ،والملعب ... لكن قانون السوفيت لن يسمح لي ... مؤكد أن هناك في أماكن أخري من العالم ، من يجرمون مثل هؤلاء الداعرات.

... لا أري أمامي بعد ما حدث سوي الرحيل كما رحلت من قبل ، فقط هذه المرة دون سجن.

لكن ما هي الخطوة التالية ؟

لا يوجد بحوزتي ما أبكي عليه ... حقا إن قلبي يتفطر من أجل الأولاد ، لكنه واقع أملته صروف حياة لم أخترها.

أعلم تماماً أن ما استقر عليه عزمي ، هو إقرار بهزيمة لكل ما توطن بنفسي من معان نبيلة عن الأسرة ، والأبوة ،والأمومة.

سأعود إلي البحر لأهيء نفسي أن أكون بحارا سوفيتيا حقيقيا ... أجد لي زوجة، وأطفال بكل ميناء تطأه قدمي ... أمتطي موجة انحلال خلقي ، وأسرى يسبح فيها مجتمع السوفيت المناهض للفضيلة.

... تململت في موضعي ، وكأن حملا انزاح جزء كبير منه من فوق كتفي كوستا ليجثم علي صدري.

لعنت في سرى هذه الجلسة ، وتصنيف الأسماك والسفن ،وكل الأعمال البحرية.

طال صمت كوستا ،وما عدت أدري أأواسيه لمصيبته ، أم أخلد إلي الصمت توافقا مع روايته الحزينة؟

لمس الرجل حيرتي ، فأخرج علبة لفائف تبغه ، ومنحني واحدة ، وأخذ لنفسه أخري.

- لا تبتئس يا فرعون ... لقد قال لك جينا علي السطح :

" مازال أمامك الكثير لتتعلمه "

وقد صدقك الرجل القول ، فالحياة مدرسة كبيرة تتعلم منها ... تتأثر بها ، وتؤثر فيها أيضاً ، وليست رسالة الدكتوراه التي تحضر لها كل شيء ، فالحياة أصدق معلم.

أو مأت برأسي مؤمنا ، ومواسيا ، فلم أجد ما أقوله .

تشاغلت لتعديل وضع الصندوق الذي أجلس عليه ، عندما قام الرجل ،واتجه إلي باب عنبر التبريد ،وضغط علي زر جرس كهربي ضغطات متلاحقات بطريقة خاصة ... انتظر حتي جاوبته نقرات خفيفة من خلف الباب ، رد عليها بنفس الطريقة ،

وظل واقفا مكانه ... أثار فضولي ما يفعله ، فصحت به في تحفظ :

- ماذا تفعل يا كوستا ؟

أجاب ضاحكا :

- لقد كدَّر حديثي صفوك ،ورأيت أن أسري عنك بزجاجتي جعة مثلوجتين لرفع معنوياتك ... لعلك لا تمانع ،وتذكر أن هذا محظور في أوقات العمل.

قبل أن يسمع ردي ، فوجئت بالباب ، وقد انفرج قليلا لتظهر يدان دفعتا بأربع زجاجات ، ثم ينغلق.

عاد كوستا إلي مجلسه ، وخبأ زجاجتين خلف صندوق ... نزع غطاء واحدة ، وناولني إياها ، ثم أخذ أخري لنفسه ... بادرنا شرب الجعة في تسرع خوفا من

مفاجأة غير محمودة ، وقد تبقي لنا حوالي ساعة حتي انتهاء وقت العمل ... تخلص كوستا من الزجاجات الفارغة ، وأشعلنا لفائف تبغ تابعنا تدخينها في تلذذ ...
أسند كوستا ظهره إلي جدار العنبر ، ووضع ساقيه فوق الصندوق الذي يتوسطنا ... كرهت كشرقي تصرفه هذا ، بيد أن الغربيين لا يجدون غضاضة أو حرجا في ذلك ... لكن أن يكون أقرب شيء إليّ من كوستا ، هو نعلي حذائه لم يرق لي ، فطلبت منه بأدب أن ينزل ساقيه فامتثل لرجائي :
... يممت وجهي بعيدا عنه محاولات إظهار عدم اهتمام لأقول:
- آ ... إلي ما انتهي إليه الأمر مع هذه المرأة يا كوستا ... تري ما اسمها ؟
ابتسامة ساخرة تراقصت فوق شفتيه ،وقال بصوت مكلوم :
- حسنا ... أراك مهتما بأحداث روايتي المحزنة ... فليكن ... كان اسمها ليزا ... طويلة ممتلئة ... تدخن وتعشق الموسيقي ، ولا تحب الرقص ، وإن كانت تهيم بالنبيذ ، ويمكنها شرب دلو بأكمله دون أن تفقد وعيها ... لكنها كانت تعتني جيدا بالأطفال.
لا عليك من كل هذه التفاصيل المملة ... عادت ابنة أختها بالأولاد ،وأنا أجلس إلي منضدة مستديرة بالصالة أدفن همي مع جرعات فودكا ... تعلق الأولاد بي ، فنحينهم بلطف عني.
تساءلت فيرا عمّا جاء بي علي غير موعد ، من خلال ضحكات ساخرة شامتة ... لقد كانت تعلم بأمر عشيق خالتها.
أكل الغيظ فؤادي ، لكني تحاملت علي نفسي ، وأجبتها في سخرية مماثلة :
- لعل اشتياقي إليك يا صغيرتي هو سبب عودتي السريعة.
جاءني صوتها من حجرة الأولاد مغلفا بضحكة غانجة :

ـ آها ... ها ها ... لعلك فطنت أخيرا لوجودي أيها الغافل.

ثم لتخرج من الغرفة في غلالة رقيقة فضفاضة تبدي ما تحتها من ملابس داخلية.

فوجئت بردها ... ولك أن تصدق يا فرعون ... لأول مرة أنظر إليها كأنثي منذ عرفتها.

تأملتها بإمعان ، فإذا بها امرأة ناضجة كأكمل ما تكون عليه الأنثي الجذابة ... جميلة ، ورشيقة ، مغرية.

عجبت لنفسي،ودهشت لوقاحتي ... كيف أنظر إليها ، وتكاد في حكم الإبنة ؟!!

تري أصابني خبال ، أو أنني أفرطت في احتساء الفودكا ؟... كنت قد أتيت علي ثلثي زجاجة تقريبا طوال جلستي الغبراء أداري فيها عجزي ، وأهرب إليها من مصيبتي.

طردت خاطرا لعينا أوحي إليَّ به شيطاني ، أن أنتقم من الزوجة الخائنة في شخص ابنة أختها.

هالني ما بلغه تفكيري من انحطاط ، وتردي به في هاوية الخسة ، والنذالة تماما كالمرأة الخائنة.

من الأجدر ترك كل هذا الدنس لأهله ، وأهجر المنزل إلي غير رجعة ... لكن إلي أين؟...

... هذا السؤال الواضح ، لم أجد له إجابة شافية ... و... عدت إلي جرعات الفودكا لعلي أصل إلي قرار.

كانت الفتاة مشغولة عني باستذكار الأولاد لدوسهم ، ثم أطعمتهما ، وحتي إذا حان موعد نومهما ، أعدت لهما الحمام ، وألبستهما ملابس النوم لتضع كلا في فراشه.

رأيت أن أغتسل ربما هربا من الهم ، أو لأفيق من تأثير الخمر. خرجت من الحمّام لأجدها تقف غير بعيد ، وبيدها منشفة ... علي وجهها ابتسامة رقيقة.

- حسنا فعلت ، فإنك تبدو منتعشا.

انفلتت في خفة راقصة إلي الحمام ... ضغطت علي مفتاح الإنارة بالصالة لأسوى شعري ، وتذكرت أن المصباح معطوبا ... جلست إلي ذات المنضدة مكتفيا بالضوء الذي يصل من حجرتي النوم ، والمطبخ.

خرجت الفتاة لتجدني حيث أجلس معتمداً رأسي علي راحة يدي ... أطلقت ضحكة ممطوطة وهي تمر إلي جواري :

- ما بال الرجل المسكين يجلس حزينا !

واصلت ضحكاتها لتدخل غرفة النوم ... وقفت أمام المرآة المواجهة للباب في قميص شفاف ينم عن جسد فائر متناسق في إبداع ، تصفف شعرها ،وتضع زينتها.

جاءني صوتها من هناك ناعما :

- أنت أيها الحزين ... هناك زجاجة "شمبانيا" بالثلاجة ... آتنا بها لنحتفل بوصولك ... لقد أمضتني وحدتك ... عموما لا تجزع يا صغيري سأسري عنك ،وتذكر أني لا أرغب في نبيذها القذر ، أو هذه الـ " فودكا " المقززة.

لم أتحرك من موضعي ، وواصلت تحديقي فيها.

- هيا أيها المسكين ، ولا تلتهمني بنظراتك فسآتي إليك ... ها ... ها ...

لمست في صورتها رنة خلاعة غير معهودة ... قمت كالمسحور ،وعدت بالزجاجة ،ووضعتها علي المنضدة .

- يا لك من كسول ... هلا أتيت بالكؤوس ، ثم مالك لا تضيء الصالة ؟

كنت زاهد في كل شيء ، لذا أجبتها كارهاً :

- إن المصباح معطوب ، ثم لا أعرف أين هذه الكؤوس.

- ها ... ها ... ها ... أري أن كل الأمور تسير في غير صالحك ... لا تسخط يا مسكيني الصغير ... سأعتني بك.

أولت المرآة ظهرها في طريقها إلي تتهادي في مشيتها ... يترجرج صدرها في إثارة مع ابتسامة تضئ وجهها المشرق.

ما إن تخطت منتصف الحجرة ، حتي بات الضوء من خلفها ، وبدت تقاطيع جسدها كأنها لا ترتدي شيئا.

اعتقدت أنها أهملت عن عمد قطع ملابس داخلية تحرص المرأة علي ارتدائها.

كانت تتابع نظراتي التي تمسح كل شبر في جسدها ... اقتربت مني ، وقد أحنت هامتها ليتهدل شعرها أمام وجهها ... زمت شفتيها ، وأصدرت صوتا مداعبا ، وهي تتلمس وجنتي بأصابعها:

- دو ... دو... دو ... آه لك أيها المسكين الوحيد ... هئ ... هئ ... هئ ...

تابعتها بنظراتي في طريقها إلي المطبخ ... أردافها ترتفع وتنخفض في حيوية ، وإثارة مهولة ... أدارت وجهها ناحيتي ،وغمزت بعينها ،ثم أرسلت قبلة في الهواء.

دار رأسي ، واستيقظ شيطان نهم ليصارع بقية من فضيلة تتواري في حياء ، وخجل

.

أشحت بيدي في قنوط ... أي فضيلة تلك التي تفكر فيها يا رجل ... لم يعد لهذه الكلمة أي معني في مجتمع السوفيت ... ذبلت ، واضمحلت ، وانعدمت قيمتها ، ومعناها مع بؤر الفساد ، ومستنقعات الضياع.

عادت ، وبيدها مصباح كهربي ... وقفت قبالتي من الجهة الأخرى للمنضدة ... قميصها الشفاف متعلق علي أكتافها العارية بحمالتين رفيعتين ... صدرها الناهد

ملتصق بالقميص في تحد سافر ... تبدو الهالتان البنيتان ، وبوسطهما ذلك البروز المتميز ليذيب عنت أشد الرجال ، وأكثرهم صلابة.

كنت أضع خدي علي راحة كف ساعدي المرتكز إلي المنضدة أحدق فيها بعينين زائغتين في حيرة ، وتردد.

ضمت يديها إلي بعضهما ممسكة بالمصباح تتفرس في وجهي مع ابتسامة متراقصة علي شفتيها.

- والآن أيها الرجل الولهان ... هل لك أن تغير المصباح !!!

ثبت إلي نفسي ، وتناقلت نظرات بين المصباح بيديها ، ثم ذلك المعطوب المتدلي من سلك بسقف الصالة ، ولم أرغب في عمل شيء.

- لعلك تدركي عدم رغبتي في عمل أي شيء ، فإن أردت تبديل المصباح فلتفعلي ذلك بنفسك ، وإلاّ فاتركيني وشاني.

أسبلت عينا ، ورفعت حاجبا كاحتجاج لامرأة لعوب تثق في قدراتها وسلطانها علي مقدّرات رجل تري أنه يترنح أمام أنوثة طاغية.

عادت عيناي تحدق في الرداء الشفاف القصير إلي ما فوق الركبة ،ولا يكاد يخفي شيئاً ... جسد أنثوي مجنون يوشك أن يخرجني عن طوري.

التقطتَ كرسيا ، وضعته مجاورا للمنضدة ، بعد أن أبعدت زجاجة الشمبانيا :

- إذن فلتمسك بالكرسي ، والمنضدة حتي أبدل المصباح.

تلاشت مقاومتي ... قمت كالمنوم مسلوب الإرادة لأضع يدا علي الكرسي ، وأخري إلي المنضدة.

اعتلت الكرسي في خفة ، ثم وفي حذر وضعت قدما فوق المنضدة ثم القدم الأخري ليصبح جسدها أمامي مباشرة لا يبعد عني سوي سنتيمترات قلائل ... أريج عطري يخدرني ... يدير رأسي.

أمسكت المنضدة بيدي لأحملق في الجسد الفتّان ... جاءني صوتها مثيرا ممطوطا كأنما من واد سحيق :

- إمسك بالمنضدة جيدا حتي لا أسقط.

صمت الأخرس المبهور بجسد ابنة العشرين ، وحيويته الدافقة ... نظرَت إلـيَّ من أعلي ، وأنا أحملق فيها لتقول في غنج متعمد :

- كووووستا ...

لا شيء بالكون سوي هذا الجمال ... لا متعة تضاهي ما أحس به ... انعدمت النسوة سوي هذه الماثلة أمامي.

دقت بقدمها محتجة في رقة ، فترجرجت أردافها :

- كووووستااااا...

أفقت من غيبوبة حالمة ... نعم أنا كوستا ... وهل أكون شيئا آخر سواي.

- آها ...

قلتها هيمانا بعد صمت وجيز.

- أفقدت سمعك يا صغيري ، أو فقدت وعيك ... هئ ... هئ ... هئ ... إمسك بالمنضدة جيدا كي لا أسقط يا متدله ... هأ ... هأ ... هأ ...

لم أفقد وعي فقط يا جميلتي ... لقد فقدت كل ما في الحياة من معان ، فلا أسمع سوي نداء الشيطان ، وجنون الرغبة ... سأمسك بك أيها الفاتنة بكل فيض سحرك ودلالك...بكل حيويتك ، وجمالك.

رفعت يدها إلي المصباح المعطوب ، وارتفع قميصها تبعا لذلك ... لا وجود لتلك القطعة المهمة ... رأيت فخذين ممتلئتين ، ونصف عجيزة عارية أمام وجهي مباشرة.

لم أملك نفسي ، وامتدت يدي تتحسس كل شيء ... ملمس ناعم غض قفز بي إلي قمة الإثارة والمتعة.

- كوستاااا ... هئ ... هئ ... هئ ... ماذا تفعل أيها الشقي ... هأ ... هأ ... ها ...

أجبت ، وقد جف حلقي ، وثارت غرائزي :

- أمسك بكي كي لا تقعي يا صغيرتي الجميلة.

قالت بصوت هو الإغراء ،والفتنة ليستعر بداخلي كل نهم وشره :

- قلت امسك بالمنضدة لا بجسدي أيها العربيد ... هئ ...هئ ... هئ ...

كانت يداي في شغل عما نحن بصدده من حديث ... فقدت الأمور اعتباراتها أمام هذه الشيطانة الحسناء التي أيقظت كل ما بالوجود من فسق ، وفجور.

- أوووه ... يا لك من عجول عنيد ... دعني أبدل المصباح حتي أوافيك يا خنزيري الصغير... هأ ... هأ ... هأ ...

... و ... مضت بي الحياة كبحار محترف في فلك اشتراكية عفنة يعيشها السوفيت أيها الشاب الألمعي ... أتراك ما زلت راغبا في جوب البحار لتصبح كوستا آخر أيها الفرعون المثقف؟!!

... وجدت أمامي رجلا ضائعا ،أراد أن يكون إنسانا حقيقيا فأبت الأحداث إلآ أن يكون هذا المغلوب علي أمره ... كوستا.

* * * * *

صراع لم يحسم

تخففت من ملابسي ، وارتديت منامة رقيقة فوق لباس البحر ... وضعت منشفة علي كتفي ، والتقطت أدوات الحلاقة ، وملابس داخلية ، ومعهم قطعة صابون فاخرة ... منيت نفسي بحمّام ساخن ، بعده أتعرض لبخار الساونا الذي يذيب الدهون ، وينتزعها من فوق مسام الجلد ... قال كوستا ، إن الاسكندنافيين يخرجون من حمام الساونا ويلقون بأنفسهم بين أحضان أمواج البحر ... وسرت قشعريرة خفيفة ببدني، فلا أتوقع أن أضع نفسي بعد الحمام الساخن تحت تيار ماء بارد أبداً!

... كنت هادئ البال مطمئناً ... استقر عزمي علي العودة إلي الشاطئ مع السفينة (الأم) التي ستوافينا بعد خمسة أيام ... أبلغني جينا موافقته ، والقبطان ... لن أقضي بمورمانسك سوي ليلة واحدة ريثما أحصل علي استحقاقي ،ثم أبتاع تذكرة طائرة إلي أستراخان.

سمعت عن هذه المدينة من كوستا في معرض حديثه ... قال إنها مدينة معظم الجنسيات السوفيتية ...

روس ، وأوكران ، وأزبيك ، وكازاخ ، وأزربيجان ، وأرمن ، وتتار .... إلخ ... قال أيضاً أن بين أهلها معتنقي كل الديانات ... إسلام ، ومسيحية ، ويهودية ، وإن كان هذا لا يعني عدم وجود ملحدين أو حتي بوذيين.

كفاني ما عانيت من عواصف ، وأنواء ... سأتجه إلي حيث الدفء بالجنوب ، ومختلف جنسيات أخري لم ألتق بها من قبل.

بنفس سمحه مطمئنة ، وذهن صاف هيأت نفسي للذهاب إلي الحمام ... ربما لم يسمع أحد من جَحْدَم بهذا الساونا ، ولكني متأكد أني أول من سينعم بهذا الساونا من أهل قريتي ... وتراقصت ابتسامة رضا علي شفتي

أشعلت لفافة تبغ ، وغادرت الحجرة ... صفقت الباب خلفي ، وسلكت الطرقة إلي الحمام أترنم بلحن أغنية روسية تستهويني.

لم أكد أخطو بضع خطوات حتي وجدته أمامي بآخر الطرقة.

كان ألكسندر قدر برز من المنعطف المؤدي إلي الحمام ... انقبض صدري لمرآه ، ووجدته قد توقف عن السير حين لمحني ... عاري الجسد إلاّ من لباس بحر أزرق اللون ، ومنشفة تتدلي من علي كتفه ، وبيده لفافة تبغ مشتعلة ... هناك مسافة لا تزيد عن أربعة أمتار تفصل بيننا ... توقفت بدوري تباعا.

عينان وقحتان تتصعدانى بنظرات ساخرة مزدرية ... وجه متجهم تقطر ملامحه ، غلا ، وحقدا ...

... إيه أيها الملعون ، ما بك ؟... لماذا تترصدني دون أن أفعل بك أو لك شيئاً ؟... لِمَ تعادني بغير سبب ؟... إنني مصري ، ولست من كوبا أيها الوضيع ... إذهب إلي من سلبك ابنك ، وزوجتك لتصفية حسابك معه ، أما أنا فلا شأن لك بي.

طرأت علي تقاطيع وجهه ابتسامة قمينة لمستهين بغريم يحتقره.

ألقي اللفافة جانباً ثم وببطء امتدت يده إلي المنشفة فأزاحها عن كتفه لتسقط علي الأرض ...

كان يهيئ نفسه لقتال!

غلت الدماء في عروقي ... لألقننك درسا أيها الوغد حتي لا تستهين بأحد ... لفظت لفافة التبغ ، وامتدت يدي إلي وسطي لأنتزع السكين من جرابه... و ... أخِذت !!

لم يكن الحزام بموضعه ، ومعه الجراب ، والمدية ... آه ، وألف آه ...لقد تركته علي السرير حين تخففت من ملابسي ... عميت عيناي عن كل شيء سوي هذا اللعين.

كيف سقطت المنشفة ؟ ... أين ذهبت أدوات الحلاقة ، والملابس الداخلية ؟ ... كل ما أعيه هذا الوقح.

يداه إلي حوائط الطرقة التي لا يزيد عرضها عن متر قاطعا الطريق ... كم وددت حسم هذا اللقاء لو كان السكين معي.

لا يجب الاستهانة به ، ولأحترس فربما كان ملاكما أو مصارعا ... لأعمد إلي قتال الشوارع ، وأتحرز أن تطولني قبضته ، وأراعي اتجاههما ... المهم ألا أهزم أمام هذا العتل ، بل ولابد من النيل منه بشده كي يتأدب.

تحرك تجاهي ، وتقدمت إليه خافضاً رأسي قليلاً بين قبضات ساعدي.

... انقضت الصواعق ... تلاطمت الأمواج ... تناطحت الجبال في حقد وانتقام ... انتفخت الأوداج ... تضخمت العضلات ... نفرت العروق ... اعتصره بساعدي الملتفين حول جسده فيما تحت إبطيه ، وأرفعه لألقيه علي الأرض ... ويأبي اللعين إلا أن يستقر علي قدميه كوتد قُدَّ من خشب السنط.

كَلابتان من حديد تلتفان حول كتفي ، وظهري في شكل ساعدين ... ضيق الطرقة لا يسمح لأحدنا بالتغلب علي الآخر ... كُلي أعصاب ترفع الصخر ، وتدكه علي أرض الطرقة ... يحاول رفعي دون جدوي ، لوضعي إحدي ساقي بين ساقيه ... الويل لمن يتهاوي.

... تزفر الأنفاس فلا تسمع إلا دكمات الأرجل علي الأرض ... تجري حبات العرق علي الأجسام الملتهبة الثائرة في حركة عنيفة ... تتخبط الأجساد بحوائط الكبائن بلا أدني احتجاج.

... أطحن الماء ... أصارع الزوابع ... يختلط العرق ... أدفع الجبل الراسخ ... كل هذا بلا أدني نتيجة في صالحي ...

محاولاتي غير مجدية ، لكنه أيضاً لا يستطيع النيل مني ...

... إيه يا بن جحدم !!! ... أين قتال الشوارع الذي اعتزمته لهزيمة هذا العتل ؟! ... لقد فرض أسلوبه عليك ليجهدك ، ومن ثم يذيقك الهوان!!!

في هذه اللحظة بالذات ، انفلتت مني ركلة صائبة بين فخذيه تقوس لها جسده ... أعقبتها بضربة قوية بجبهتي فوق منخاريه ... تفجر الدم من أنفه ، واهتز جسده بشدة ، وإن لم ترتخ سواعده ، أو يفقد توازنه ... وأصليته ضربات من جبهتي فوق أنفه الدامي ، وركلات من ركبتي بين فخذيه.

... كم مر علي الصراع من زمن ؟ ... دقائق ! ... ساعات ! .. يوما! ... عاما! ...

كل ما أعيه أن هناك صوتا أتي من واد سحيق كأنه صوت البعث :

- توقف ... توقفوا فورا ...

كلت السواعد ... تقطعت الأنفاس ... تمزقت الصدور ... و ...

- قلت توقفوا فورا.

انزاحت الكّلابات من فوق كتفي ، وظهري ... سطع الضوء ... وُلِدَت الحياة ... و.... تلقفت الهواء.

أزحت الجدار للأمام خطوة ، وتراجعت للخلف أخري.

كان جينا يقف في نهاية الطرقة بوجه أحمر ، وشعر مبتل ، وجسد عار إلاّ من منشفة تغطي وسطه إلي ما فوق الركبة.

كيف تحركت لأقف بوسط الطرقة ألتقط الأنفاس ... صدري يعلو ، ويهبط في تلاحق ... أتبادل ، وغريمي نظرات وحشية تقطر مرارة ، وكراهية.

كان يلهث بصوت مسموع ، والدماء تتساقط علي فمه ، وصدره ... آثار سواعدي واضحة علي جبينه ...

إرتكز إلي الحائط يمسح الدم بساعده من علي فمه.

كدت أتهاوي ، فاستندت إلي حائط كابينة .

- ما هذا الهراء ، وعلام الصراع ؟ ... أنت يا ألكسندر ... أمازلت علي جنونك القديم ؟! ... هيا أغرب عن وجهي فلا أشم رائحتك العفنة هنا.

تحرك هذا اتجاهي ... استمر جينا في صياحه :

- خذ منشفتك اللعينة هذه معك ... هيا .

اتجه بوجهه ناحيتي ، وقال في اقتضاب :

- عباس ... إلي كابينتك.

كنت أتابع تحركات ألكسندر في حرص تخوفا من مفاجأة غادرة ... انحني ليأخذ منشفته ، فاصطدمت ساقاه ببعضهما ، وكاد يسقط...

آها ... لست وحدي المنهك إذن ... لقد نلت منك أيها العتل ... حقاً ليس بالقدر الذي أردته ، وطمعت فيه ... لكني سأقتلك أيها الوغد اللئيم ... حتما سأقتلك.

استدرت للخلف ، وانحنيت أجمع حوائجي المبعثرة ... قطرات من دمائه النجسة لوثت منامتي ... مادت بي الأرض فاستندت إلي جدار الكابينة المجاورة ، والتقطت متعلقاتي ، وخطوت إلي الكابينة في ضعف.

ما إن أوصدت الباب خلفي حتي أرتميت علي السرير ، وحرصت أن أستل السكين من جرابه ... آه لو كان معي ، لقضيت علي الكلب الوسيم ... يا لي من جرو أخرق.

كانت النافذة موصدة ... هواء الغرفة لا يكفيني ... أنيّ لي بشخص يفتحها لينعشني هواء البحر حتي لا أفقد وعي ... ارتخت قبضتي ، وانفلت السكين.

سحابة بغيضة معتمة تلفني في طياتها ليفقد كل شيء معناه ... الناس ، والصراع ، والهواء ، حتي الحياة.

... أفقت لنفسي ... وجدتني مستلق علي ظهري وقد استقر تنفسي ... حاولت السيطرة علي أعصابي لأتمالك نفسي ... ما بذلته من مجهود علي غير توقع مع هذا اللعين فاق كل تصور ... صارعته بكل كياني ... كل عضلة ، وكل خلجة ... ثور جامح فك من عقال ليدمر كل معاناته في شخصي يعميه حقد دفين ... ألا تبا لك ، ولعاهرتك أيها المأفون ... قطعا ما تردد في إزهاق روحي لو تمكن مني.

رفعت ساقي علي عارضة السرير ... عضلات الساقان ترتعش ... ذراعاي واهنتان ، وإن أفلحت في القبض علي السكين من جديد ... أحاول استرجاع لحظات الصراع ... لم أوفق في استيضاح ما فعلته به تماما ، أو ما حاوله حيالي ... كل ما أعيه ركلات بركبتي بين فخذيه ، وضربات ساحقة بجبهتي فوق أنفه ... لم تكن بي خدوش أو رضوض ... إنما ضعف قاتل ، ووهن مميت.

سويت وضع الحشية تحت رأسي ، وفتحت عيني ... جو الغرفة مصفر ، ودوار خفيف يلف رأسي.

... لم أدر كم مضي من الوقت ، وأنا مستلق فوق السرير إلي أن هدأت تماما ... شعرت برغبة ماحقة في النوم ... تململت لأستوي علي جنبي الأيمن ، وأخفيت يدي القابضة علي السكين تحت الحشية.

فتح الباب فجأة ، وكدت أقفز لتوي ... توقعت أن يكون ألكسندر ، لكني تبينت وجه أرتين بفرجة الباب ... زفرت أنفاسي ، وتركت نفسي علي سجيتها حتي ترتخي أعصابي التي توترت فجأة.

- إيه عباس ... مالك لا تذهب إلي الحمّام؟ " سأل مستنكرا "

قلت ، وأنا أغمض عيني :

- دعني أنام لنصف ساعة ، ثم أيقظني من فضلك.

لا أدري كيف يأتينا النوم ، وكل ما وعيته صوت أرتين ، وهو يوقظني لأذهب إلي الحمام ، وكأني نمت لثوان معدودات.

مضيت إلي الحمّام متثاقلا ، وقد أخفيت المدية بطيات الثياب الداخلية.

نسيت ولعي بالمياه العذبة الساخنة ، أو رغبتي في بخار حمام الساونا.

* * * * *

تـــوقّـــف

شعرت برجلي تتخدرا لطول جلسة فوق الممشي الحديدي البارد إلي جوار سقف غرفة الآلات ... عيناي لا تفارقان تحركات شبح ألكسندر خلف بكرة الونش الأرضي ... حتما سيغادر موقعه ، ولو لقضاء حاجة ... سأنقض عليه من الخلف مفاجئا ... يد تكتم فمه ، بينما الأخري تدفن نصل السكين في قلبه حتي المقبض ... أما عن جثته فسألقي بها من فوق إفريز الباخرة لتغيب بين أمواج البحر ... ستضيع الجلبة مع هدير الآلات.

لايهولني ما أنا مقدم عليه من أمر ، أو أتردد في فكرة تنفيذه ... إن من تخطي حاجز الخوف ، وارتكب جريمة قتل لأول مرة يسهل عليه جدا أن يقتل مرة أخري ... وقد قتلت عمران أبو سلول*من قبل ، فما أيسر أن أزهق روح الكلب الوسيم ألكسندر.

وقفت ملتصقاً خلف نتوء متنفس غرفة الآلات لخروج الغازات الساخنة ... حمل الهواء الساخن رائحة الزيت المحترق ، والعوادم إلي أنفي ... أحسست بالضيق بعد فترة ، وإن سرت في جسدي حرارة الهواء الصاعد من أسفل ... حركت قدمي بحرص في موضعي صعودا ، وهبوطا ليسري الدم فيهما ...

استحال عليّ متابعة تحركات اللعين من موقعي ... من الخطأ أن ادع شبحه يغيب عني ، فلربما اقترب آخر لا أستطيع تبين ملامحه في الظلام ، وأفاجأ بكارثة.

ضقت برائحة الغازات الكريهة ، فعدت إلي جلستي السابقة مستنشقا هواء نقيا ، وأتابع غريمي.

خطوات عمل تسير في انسيابية معتادة ... التزام ألكسندر ، ومتباعته دقائق عمله يثير حنقي فلا يبتعد الرجل عن موقعه علي الإطلاق ... لفافة تبغ مشتعلة تلازمه متدلية من بين شفتيه يتناوب استبدالها في تعاقب ... بادرة ملل تتزايد تدريجيا

* الجزء الأسفل من الخماسية : " ثغرة في أسفل الجدار".

لمتابعة مضنية دون نتيجة إيجابية ... نال مني السأم ، وحل عليّ تعب يوم عمل شاق ، وعرف التثاؤب طريقه إليّ ... ميل لاسترخاء بعد أن ثقل علي نفسي صلابة مكان ، ولذعات برد وترقُب غير مجد ... فتور همة مع شبهة إعادة نظر في أمر اعتزمته ، وعدول يتنامي مفسحا له صدي في نفسي ... لعله من الأوفق ترك أمر هذا المنبوذ لشأنه ، وأمضي إلي مرقدي.

لقد كان جينا محقا فلا يجب أن أدنس يدي بهذا النجس ، وعليه فلا معني لجلستي المترقبة كجرو مسعور أجافي النوم ، والراحة.

أعرف مدي كرهه لي ، وأننا التحمنا في عراك رهيب ... لكنه لم ينل مني ، وأري أنني تغلبت عليه ... حطمت أنفه ، وأسلت دمه ، وضربته بين فخذية مرارا عند موطن رجولته ... ربما أكون قد قضيت عليه كرجل ، فقد تقلص جسده كفأر مذعور ، ولم يخرج للعمل في اليوم التالي.

هدأت نفسي ، وحلت روح التبصر والمنطق محل الإنفعال المستعر ، ولا أري مبررا لقتل ، وانتزاع الروح البشرية قسرا ... حقيقة أنه اعتصرني بذراعيه حتي خلته سيحطم أضلاعي ، وأنه ما تردد في إزهاق روحي لو أمكنه ... بيد أنه وثق ، وتأكد لديه أني لست لقمة سائغة.

فلأنفض يدي منه.

... لكن ماذا لو لم يظهر جينا في الوقت المناسب؟ ... أكنا سنتقاتل حتي الموت؟!

ربما أفاق لنفسه ، وتأكد ألا دخل لي في مصيبته ، وأني لم آت إلي الاتحاد السوفيتي لخطف زوجة أو ابن ...

إذ لا أستشعر أنه يتربص بي ، بينما أكمن له هنا لأهلكه ... أسعي لقتله في خسة ، ودناءة طوال ثلاث ليال متعاقبات ... ومتي كان القتل ، وتصفية الأجساد حلا أمثل لتصفية خلاف؟!!

أعتقد أن هذا منطق التخلف والغشم ... وأنا أربأ بنفسي التدني لهذا الحد.

قد أجد لألكسندر بعض عذر في كراهية الأجانب عن بلده لتحطم أسرته وتشتته علي يد أحدهم ... وعليه فقد كرهني بدوره ، ولكن ماذا لو كان أحد أبناء جلدته هو سبب فرار زوجته؟!!...

تبقي لي يومان لأغادر نافيجاتر إلي غير رجعة ، ولن ألتقي وهذا الحقير إلي الأبد ... لقد لمس جينا خمولي وتكاسلي في العمل بعد يوم الساونا ، وألقي بكلمات هي عين الحقيقة :

(إيه يا نسر ... يلزمك قسط من الراحة ، فلا ترهق نفسك يا بني)

كأن الرجل يقرأ أفكاري ... داهية حنكة الزمن ، وصقلته تجارب الحياة ... ذو فراسة لا مراء فيها ...

خطر ببالي أنه ربما يتفقدني بالغرفة ... و... للتو طردت هذا الخاطر ، فليس هذا من شيمته ، و إلاّ بحث عني وواجهني مباشرة.

... إيه أيها التعس ألكسندر !! ... لم يكن لي بك شأن ، فاعترضت طريقي ، ولزمني الهم بسببك ... ألا سحقالك.

..... تحسست السكين داخل جرابه قبل أن أستوي علي قدمي ، وأجر رجلي جراحتي الغرفة ... ارتميت بملابسي علي السرير كأنما ألقيت بهمومي إلي أمواج البحر.

من قتل إلكسندر

صرَّ باب الكابينة ... امتدت يدي إلي السكين تلقائيا قبل أن أستوي جالسا علي السرير ... لمحت وجه جينا.

فتح الرجل الباب ليوقظني استعداد للعمل ... لاحظ تصرفي فهز رأسه في رثاء ، وأنا أحملق فيه بعينين مذعورتين :

- إيه يا نسر ... سيظل الشرقي شرقيا ... هيا يا فتي واستعد للعمل.

لم أتفوه بكلمة ، ومازالت يدي تقبض علي السكين ... هز رأسه مرة أخري ، وهو يهم بإيصاد الباب :

- لا تبتئس يا نسر ... إنها آخر وردية عمل لك علي نافيجاتر ... غدا تنتهي كل متاعبك.

زفرت أنفاسي دفعة واحدة . وارتخت عضلات جسدي التي تقلصت فجأة ، وانزاحت يدي عن السكين ببطء ...

أولاني الرجل ظهره ، وأوصد الباب.

كنت كمن نام للحظات ، وشعرت برغبة قوية للاستلقاء علي الفراش ... كلمات الرجل ترن في أذني توبيخا لسوء طويتي ... كدّرني أن ترسخ بذهنه فكرة غير صحيحة عني كأول مصري يعمل معه ، وأحسست بالخجل.

شعرت بثقل رأسي ، وصداع مبعثه قلة نوم.

قمت متثاقلاً إلي الصوان ، وأخرجت قرصا من دواء مسكّن ابتلعته، وخرجت مترنحا إلي غرفة الملابس لأبدل ثيابي ... التقيت بكوستا الذي صاح مداعبا:

- سأفتقدك أيها الفرعون ، لكن قد نلتقي بأستراخان إن كنت جادا بالذهاب إلي هناك.

خرجت ، وكوستا إلي موقع العمل بعد تناول وجبة طعام خفيفة ، وقد أصبحت أحسن حالا ، وإن ظلت الرغبة في النوم تداعبني ... لكن الإحساس بأن هذه آخر

وردية عمل لي علي ظهر نافيجاتر ، جعلتني أكثر نشاطا ، وحيوية ، وتسامحا حتي لا أجد غضاضة في رؤية ألكسندر ... كان جينا قد ألحق أرتين بجماعتنا بدلا منه عقب صراعنا.

... وجدته منزويا بالجانب الأيسر من منطقة عمليات الصيد ... ضمادة صغيرة تغطي جانبا من أنفه ...

لفافة تبغ مشتعلة لا تفارقه كعادته ، وهو يرنو إلي أمواج البحر في هدوء ... تأسيت لحاله ، وودت لو أمضي إليه لأصافحه ... لكني لم أفعل خشية أن يكون مازال علي ضلاله القديم.

شُغِلت بمهام العمل ، ولم أعد آبه لشيء ... لتتلبد السماء بالغيوم ، وليتساقط الجليد ، أو تزأر الرياح ...

كل هذا لا يهم ... سألقي به خلف ظهري ، وأقضي السويعات المتبقية لي علي ظهر السفينة بروح مرحة ، وشعور ببهجة لشاب علي مشارف الحرية ... سأمضي قدما إلي استراخان ودفء الجنوب.

سمعت صوت جينا عاليا ، ولعناته تتلاحق تباعا :

- أيها اللعين ... أين طرد الكارتون ؟ ... أين ميشا ؟

كان يقصد ميخائيل رئيس الوردية الثانية ... ذهني بعيد تماما عن جينا ، وصيحاته ، ولعناته ... أمر بحالة لا مبالاة بكل شيء ... ذهن صاف من أي مشاغل أخري تقلق آخرين ، فكل ما يعنيني أن أقضي ما تبقي لي من وقت فيورديتي الأخيرة بسلام ... آمل أن أشغل نفسي وحتي مغادرتي نافيجاتر فيما أنتويه من أمر ، ومدينة سمعت عنها أتعشم أن تحوز رضاي.

أقترب مني كوستا تبدو عليه مظاهر اهتمام :

- فرعون ... أجاد أنت في الذهاب إلي أستراخان ؟

- كل الجدية .

- إذن دنا نلتقي هناك ... سأكتب لك عنواني.

- لا رغبة لي في ذلك.

- ولِمَ ؟

- لا أدري ، ولكن دعني وشأني الآن.

نفض يده دليلا علي تبرمه من ردي وقال معقبا :

- إنك اليوم غير مسل يا فرعون.

تابع كوستا عمله في صمت ، وأسعدني هذا.

حانت مني التفاتة إلي الجانب الأيسر من منطقة عمليات الصيد ، فإذا ألكسندر مازال مرتكزا إلي الإفريز الجانبي يولينا ظهره في تطلع إلي البحر والأمواج :

... تري فيم يفكر؟

وجدتني مشغول بأمره علي نحو ما ... تذكرت أنهم انهوا عملهم ، فلا عمليات صيد أخري بعد ورديتنا حتي وصول السفينة الأم ، إذن فما باله يلازم مكانه هذا دون خلود إلي راحة ، واسترخاء ؟ ... أتراه يتربص بي جهارا ، وأنه أجَّل حسم الصراع إلي اللحظة الأخيرة ؟ ... أيكون قد انتوي قتلي كما كنت أنوي معه ؟

... تسارعت دقات قلبي علي الرغم مني ... تحسست السكين بجرابه في تلقائية ، وتوخيت الحذر في تحركاتي ... عيناي لا تفارقا شبحه ، وهو مول وجهه ناحية البحر متابعا تدخينه.

عن لي خاطر آخر ، إذ ربما كنت مخطئا في تفسيري للأمر ، وأن قدما المسكين ما قادتاه إلي هنا إلاّ ليعتذر عما بدر منه تجاهي !

..... أوه أيها الساذج ... فلتحترس ، ولا تبالغ في التفاؤل ، فلن يبكي عليك أحد إن أصابك مكروه.

توتر ممجوج كرهته ، وإن حرصت من خلال تحركاتي ألا يغيب شبحه عن عيني.

رأيت جينا يندفع مرة أخري من خلال الممر الجانبي ثائرا :

- أنت أيها الملعون ...

كان يوجه سبابه إلي ألكسندر الذي لم يعره اهتماما.

- ألكسندر ..

استدار هذا ببطء ليواجهه.

- ماذا تفعل هنا أيها الوقح ؟ ... هيا وافنا بطرد الكارتون.

رفع ألكسندر يديه إلي أعلي ، ومال برأسه للخلف قليلا ، بينما لفافته عالقة بين شفتيه ، وظل مكانه دون تعقيب.

- تحرك أيها اللعين وأنجز موضوع الكارتون.

تحرك ألكسندر من مكانه ببطء ملحوظ ، بينما جينا يصب لعناته شاملا معه رئيس الوردية الثانية ... ظل يصعّده بنظرات نارية عاجزة عن فعل أي شيء ليغيب هذا عن أعيننا.

... و ... تنفست الصعداء.

أعرف أن طرود الكارتون بثلاجة التخزين السفلية ... غامرت ذات مرة بالنزول إليها مع كوستا ... درجة الحرارة فيها ما دون الصفر بأربعين درجة ..سقفها لا يعلو أكثر من مترين ، ونصف المتر ... مقبرة باردة يشع الزمهرير ، والموت من جوانبها ... استخدمنا المصعد وقتها لإخراج طرد الكارتون ... صندوق مربع يزيد طول ضلعه عن المتر قليلا ، له إفريز حديدي ، وقوائم أربعة تنتهي بسقف معدني ... لو برزت

يد أو رأسي خارج الإفريز ، لفقد الإنسان أحد أعضائه ، أو حياته عند ارتفاع المصعد ... كتمت انفعالاتي وقتها عن كوستا ، وكرهت النزول إلي الثلاجة مرة أخري ... أكاد أجزم بأني لن أعمل علي أي سفينة صيد أخري ... سأكتفي بفترة التدريب هذه ، فقد ضقت بكل ما يحيط بي ... العواصف ، والصقيع ... الأماكن الضيقة ، والأوجه المكفهرة ... تصنيف الأسماك ، والسيور السوداء العكرة ... رائحة الأسماك ودهونها ، ودمائها الباردة ... الأحذية المطاطية الطويلة.

أحن إلي الأعشاب وجداول المياه ، والأشجار ... رائحة أديم الأرض ، وصخب الحياة ... تقاطيع أجساد الفتيات ، وعبيق عطورهن.

لا أرغب في لقاء كوستا في أستراخان ... أسلوب حياته يجسد تحرر الغرب ، بينما كل ما بداخلي يعني التزام الشرق ، رغم ما أقترفه من آثام.

- أنت يا نسر ... أترك ما بيدك لكوستا ، وأذهب لتباشر ماكينة التغليف ... هيا.

نظرت إلي جينا بدهشة ، واستغراب ... " ماكينة التغليف !!! " ...

... أنا لا أعمل علي هذه الماكينة ! ... ثم هناك إيجور ... ماذا يعني العجوز الخَرِف؟.

- إقفل فمك ، وتحرك يا نسر فلا وقت لدينا ... هيا.

... لا أفهمك أيها العجوز ، ولعلني ما فهمتك قط ... ألا تباً لك ، ولكل ماكينات التغليف المعروفة ، والتي ما سمعت عنها ... ألا يمكنك أيها الخَرِفُ أن تدعني سويعاتي المتبقية دون منغصات؟!.

ألقيت ما بيدي ، وتحركت في طريقي ، وأنا أكاد أتفطر من الغيظ ... ماذا حدث لإيجور حتي أحل محله علي هذه الماكينة الملعونة.

ما إن أوليت منطقة عمليات الصيد ظهري ، وقد نال مني الغضب ، حتي سلكت الممشي المؤدي لماكينة التغليف ... التقيت في الطريق عند باب المصعد بإيجور

مشغولا ببعض الأسلاك ، والأدوات الكهربية مع كهربائي السفينة ... في التو انزاح عن صدري حدة ما اعتراني من انفعال ، وقدَّرت أن هناك من العطب ما تطلّب استدعائه لمساعدة الكهربائي ... تابعت سيري خلال الممشي الوحيد شبه المعتم إلي الماكينة المتوقفة عن العمل.

مدخل منخفض كئيب أشبه بمدخل زنزانة ... هناك فتحة بجدار غرفة الماكينة إلي يسار المدخل يطل منها سير مطاطي أسود أعرض قليلا من بلاطات الأسماك المتجمدة يبدأ من عنبر التبريد ... فتحة أخري بالجهة المقابلة أوسع يطل منها سير آخر يبدأ من نهاية الماكينة ليصل إلي ثلاجة التخزين.

غرفة موحشة مقبضة للنفس تبث إحساسا بالإنعزال ، والوحدة ... بلاطات الأسماك المتجمدة زنة عشرة كيلو جرامات ، تقبع علي السير في سكون الأموات ... برودة قبيحة تشع من كل أركان الغرفة ... أمسكت بكارتونة ، وعدلت من شأنها فاتخذت شكل صندوق ذا واجهة عليا.

وضعت الكارتونة في مكان مختص بها علي الماكينة ، وضغطت علي زر التشغيل ... أزّت الماكينة ، ودبت الحركة في السيور ... توالت بلاطات الأسماك لأضع كل ثلاثة في كارتونة ... أزيحها من مكانها لتحزمها الماكينة ، وتنزلق إلي سير ثلاجة التخزين ... تمتد يدي إلي كارتونة أخري لأعيد الكرَّة ... سلسلة عمليات رتيبة مملة. إنسقت بجدية نحو عمل بغيض إلي نفسي تفرضه آليَّة الماكينة ، وتوالي البلاطات ... تندي جبيني ، ونضح جسمي بالعرق لأتوافق ، وسرعة الآلة.

أجزم أن إيجور لا يبذل كل هذا الجهد لتكيفه مع طبيعة العمل ... لعنك الله أيها العجوز المناكف ... مالي ، وهذا العنت ، والغُرَف الضيقة! ... لماذا لا تكلف وغدا غيري ، وتدعني مع أمواج البحر ، وطيور النورس ، والهواء النقي؟

أزيز ماكينة ، وقعقعة سيور ، وبلاطات أسماك ... إسطوانة مشروخة ما تفتأ تكرر النغمة عشرات ، ومئات المرات دون ملل.

أخذت أعداد الكراتين إلي جواري تتناقص ... وجدتني في حاجة إلي كارتون ... و ... فجأة ...

آآي ... إن ألكسندر سيوافيني بطرد الكارتون بتكليف من جينا !!!؟؟؟

ألا سحقا لك إيها العجوز العفن ...

وجهي إلي الماكينة موليا ظهري للمشي ، ويأتي ألكسندر من خلفي فلا أراه.

استدرت للخلف ، ويدي إلي مقبض السكين أحملق في الممشي شبه المعتم ...

توقفت عن العمل ، وتتابعت بلاطات الأسماك المتجمدة في تواليها ، وسقط بعضها علي الأرض.

كان الممشي خاليا كئيبا ، ولا رائحة لبشر هناك ... ضغطت علي زر الفاصل الكهربي ، فتوقفت الماكينة ، وكفت السيور عن الحركة ... تشتت نظراتي بين مدخل باب غرفة ماكينة التغليف ، وبلاطات الأسماك المتناثرة ... يجب وضع البلاطات بالكراتين ، وفي ذات الوقت أحذر مفاجأة ألكسندر.

ارتعشت يداي ، وانتفض جسدي علي الرغم مني ... اضطراب مخز ألمّ بي علي غير توقع ... عرق بارد غزير غسل وجهي ... إحساس بأني داخل مصيدة دفعني إليها جينا ، ليقوّض ألكسندر أضلاعي بمديته علي حين غفلة ... مكان مثالي للقتل.

انتهيت من بلاطات الأسماك المتناثرة كيفما اتفق ، وأوليت وجهي للمشي ... أشعلت لفافة تبغ بيد مرتعشة ، وجلست إلي موضع بالماكينة أفكر في الأمر.....

أهو اتفاق بين جينا ، وألكسندر؟ ... أيكون العطل الكهربي مفتعلا ليرسل بي إلي هنا؟!!!...

ثم لماذا لم يرسل كوستا بدلا مني؟

أيمكن لجينا أن يتآمر ضدي بتواطؤ مع ألكسندر ، لأنساق إلي المصيدة بغباء أحسد عليه؟.

..... فلتذهب كل بلاطات الأسماك ، والكراتين إلي جهنم ، فلن أعمل هنا بحال.

استويت واقفا ، وألقيت ببقية لفافة التبغ المشتعلة ، ووطئتها بقدمي.

... لم أكد أتحرك من موضعي ، حتي سمعت وقع أقدام مسرعة ...

سللت السكين من جرابه ، وأحكمت يدي بقوة علي مقبضه ... تواريت مستترا ببروز معدني يحجبني عن أنظار ذلك المهرول ... بلغ تحفزي مداه ، وشرعت سكيني في مبادرة لسحق ذلك العتل ...

ثبتت اليد ، وانتفت ارتعاشتها ... رسخ الجسد ، واستقر متصلبا في قوة ... توقدت عزيمة ابن جحدم ،وتحفزت لقبول تحد مفروض ... الموت ، والموت فقط هو محصلة لقاء حتمي عاصف ... سأبعث به إلي الجحيم دون أدني رحمة ... لكن قبل كل هذا لن أبادئه بالهجوم حتي أتلمس نيته في العدوان ، فقد يلقي بطرد الكارتون ، ويوليني ظهره بسلام ... و ...

تناهي إلي سمعي صوت ذلك المهرول يصرخ في هستيرية :

- ألكسندر قتل ... ألكسندر قتل ... أسرعوا إليه ... إنه يموت ...

اندفعت إلي الممشي ، وأسرعت إلي حيث الصراخ ... التقيت بإيجور ، والكهربائي كل يحملق في صاحبه.

كان أرتين يصرخ ، ويشير لأسفل ... عينان زائغتان ، ووجه ينطق بالرعب ... جسده ينتفض ، ويدفع ميشا أمامه دفعا.

- أسرعوا إلي ألكسندر ... ساعدوه ... إنه يموت ... إنقذوه ...

لحق بي إيجور ، والكهربائي ، لنهرع جميعا خلف أرتين ، وميشا ... فوجئت بجينا أمامي ... قبض علي ذراعي بقوة ، واستوقفني :

- نسر ... أهو أنت ؟! ... هل قتلته ؟

فغرت فمي في ذهول لمفاجأة ما احتسبتها ... لم أجد ما أرد به علي الرجل ، وكأني ابتعلت لساني.

رجع أرتين ، ودفع جينا دفعة قوية :

- أسرع إليه ... إنه بثلاجة التخزين ... إنقذوه...

... أخذ ينتحب في مرارة ، وجسده يتشنج ، ثم ارتمي علي الأرض في تقلصات غريبة.

إختفي جينا ، ووجدتني أجثو أمام جسد أرتين المتشنج ... لكن ... ماذا قال المعتوه جينا ؟!!!

إنني لم ألمح ألكسندر بالمرة ... ترقبت قدومه ، لكنه لم يأت أبدا.

سمعت الكهربائي يصرخ :

- إن المصعد معطل.

تدافع الجمع إلي سلم حلزوني في طريقهم إلي الثلاجة ... تركت أرتين لتشنجاته ، وأسرعت خلفهم ... فطنت إلي أني مازلت أقبض بيدي علي السكين ، فدفعت به إلي جرابه ... كدت أنزلق علي السلم الحديدي ، لكني تماسكت وواصلت هبوطي لأري كيف قتل ألكسندر ...

من فوق الرؤوس ،أمكنني رؤية بقعة دم علي أرض الثلاجة يتصاعد منها البخار...

- إنه بأعلي ...

نظرت حيث أشار ميشا ...

كان هناك شيئاً بغيضاً ... شيء كريه ممقوت ... الموت بعينه يطل علينا من أعلي... ... وجه أزرق منتفخ ... دم أسود يتقاطر من الأنف والفم ، والأذنين ... لسان متدل من بين فكين مفتوحين عن آخرهما ... الرأس والعنق ، ومعهما اليدان ، والساقان يتدلون من فوق إفريز المصعد ...

كل هذه الأعضاء محشورة بين السقف ، وإفريز المصعد ، بينما الظهر والمقعدة قد تقوسوا بشكل مريع داخل صندوق المصعد فوق طرد كارتون.

... بُهتُ ... دوامة رهيبة مقززة تلفني في طياتها ، حتي لا أكاد أعي ما حولي ... يا إلهي ... كيف حدث هذا ؟!!!

إن الشيطان نفسه لا يمكنه الاحتيال ، أو التحريض علي ابتكار أسباب ميتة شنيعة علي هذا النحو المقزز ...

لقد رأيت حالة موت هادئة وديعة ذهبت بروح أمي إلي بارنها بسلام عن دنيانا ... ثم واجهت حالة موت عنيفة انتزعت روح عمران أبو سلول قسرا تفتت لها الصخر ، فلم تعترني معاناة نفسية كهذه.

حالة غثيان انتابتني كدت علي أثرها أفرغ ما بجوفي.

صاح جينا آمرا :

- أسرعوا بإنزال المصعد ... هيا تحركوا ... أسرعوا ...

تزاحموا علي درجات السلم صعودا ... كنت خائر العزيمة ، لذا تنحيت عن الطريق ... لمحت ميشا يتخطاني إلي أعلي يتبعه إيجور ، ثم آخرون ... تحاملت علي نفسي وصعدت لأعلي ، وجلست علي أرضية بسطة السلم منزويا في ركن.

هرج ، وصياح عند باب المصعد ... مرة أخري تدافعوا نحو سلم الثلاجة ، ولم أقو علي النزول معهم ...

سمعت صوت وقع أقدام ثقيلة تتزامن مع صيحات تحذير في الطريق لأعلي من جوف الثلاجة ... خرجوا بصعوبة من الباب الضيق يحملون جثمان ألكسندر ... وضعوه علي أرضية الطرقة وتكأكؤا حوله.

تحاملت علي نفسي ، ووقفت مستندا إلي جدار معدني ... كان أحدهم يحرك ذراعيه في محاولة عمل تنفس صناعي ...

لمحت جينا يضغط علي صدر ألكسندر ضغطات قوية مفاجئة ... وضع فمه فوق فم ألكسندر ، ونفخ فيه بما يعرف بقبلة الحياة ... تلوث فمه بالدم الأسود ، ولم يعد الكَرَّة.

أقبل طبيب الباخرة برادئه الأبيض مهرولا تتدلي من أمام صدره سماعته الطبية ... أفسحوا له الطريق في صمت.

ركع الطبيب علي ركبتيه ، وأمسك برسغ ألكسندر ، ثم وضع السماعة فوق صدره ... أخذ يتفحصّ العينين والعنق والظهر بعناية ... لمحت نظرات الأسي في عيني الطبيب الذي هز رأسه أسفا :

- ماذا يا دكتور ... هل ذهب ؟ " سأل ميشا في لهفة "

نظر الطبيب مشفقا ليقول :

- إحملوه إلي العيادة بأعلي ... لقد تأخرتم كثيرا قبل الوصول إليه.

- ماذا تعني ؟ ... هل مات ؟ " واصل ميشا تساؤله "

- كسر بالعمود الفقري عند العنق نتيجة الأصطدام بشيء صلب ، وحدثت الوفاة منذ خمس عشر دقيقة تقريباً.

- أيعقل هذا ... كيف ؟ ... لكن .....

انسحبت علي الأثر في الطريق إلي الكابينة بملابس العمل ... أسرعت في سيري ، وأنا أتلفت خلفي ... حتما ستتجه أصابع الاتهام نحوي ...لقد قُتل ابنهم ، ولابد من فاعل ، وعليه سيعتقدون أني قاتله ... بالقطع لن أجد منصفا واحدا يقف في صفي ... ربما يعميهم الغضب ، وينقضون عليَ ... و ... آه ... أتراني سأُقتل ؟ ... وأين ؟ ... في آخر بقعة في العالم !!!

هناك مقوله سمعتها يوما مفادها أن " من قتل يُقتل ، ولو بعد حين " .

أيمكن أن يكون هذا الحين قد حان؟

فطنت إلي إني أسير في ممشي آخر غير الذي يؤدي إلي كابينتي ... وجدتني أمام كابينة جينا ... و... لم أتردد.

أدرت مقبض الباب فاستجاب لي ، ودخلت ثم دفعت الباب بقدمي فأوصد ... تهاويت علي مقعد أمام منضدة مستديرة مواجها الباب ... اعتمدت برأسي علي كفي.

... يا له من مأزق ترديت فيه دون جريرة ... لعلهم يبحثون عن القاتل ... حسن أن قادتني قدماي إلي ها ، ولم أتجه إلي كابينتي ... لكنهم سيجدوني عاجلا أم آجلا.

لكن كيف يتسني لي قتله بهذه الطريقة البشعة ... إنه ترتيب الشيطان نفسه.

ألا سحقا لك أيها الوغد الحقير ... لقد كنت مصدر قلقي علي السفينة ، وأنت حي ، ثم كذلك وأنت ميت.

كانت هناك زجاجة فودكا فوق المنضدة يجاورها كوب صغير ... أفرغت لنفسي ، واجترعت ما بالكأس ... طعم مريع غير مستساغ اشتعل له فمي ، وحلقي ، ومعدتي.

قمت إلي صنبور فوق حوض بدورة المياه ، وشربت منه مباشرة ، ولم أرتو ... عدت لأجلس في موضعي ، وحالة يأس مزرية تلم بي.

كان حريا بي أن أفزع إلي الله أسأله الهداية ، وتفريج الكرب وقت الشدة ... و...

سخرت مما أنتهي إليه تفكيري بشأن ضائقتي ... " ألآن ، وقد أشرفت علي الهلاك تتذكر رحمة الله ، وتود أن تفزع إليه ، ومازال بخار الخمر يتصاعد من فمك أيها العربيد ؟!!!

... وأين تواري هذا الفكر عند مطارحة الفتيات الغرام مع كؤوس الكونياك ،والشامبانيا ... فليحل بك غضب الله ، ونقمته".

... ولكني لم أقتل ألكسندر بأي حال ... لم ألمسه ، ولتسمعوني جميعا ... لا أدري ما الذي حل بهذا الوغد ؟ ... كنت هناك بين بلاطات الأسماك ، وماكينة إيجور اللعينة.

... هل سيقتنعون ، ويصدقون ما أقول ؟! ... هل سيتدخل القبطان فارضا حمايته عليَ كأجنبي؟!

إنه أعلي سلطة علي ظهر السفينة ، وكلمته هي القانون.

... لقد سألني جينا ، إن كنت قتلته ... إني لم أفعل أيها العفن ، فلماذا تشير نحوي بيد الأتهام قبل أن تتأكد ، وتصبح أول محرض علي الإدانة؟

لن أدع أحد ينال مني ببساطة ... سأقاتل بضراوة إن هاجموني ، وأقتل كثيرين منهم قبل أن يردوني...

سأثأر لنفسي قبل أن أقتل فلن يثأر لي أحد.

آآآه ... أحس بوهن مميت ... ضعف قاتل ... عزيمة خائرة ... قد يتكاثرون عليَ ، ولا أستطيع النيل من أحد ... آه لو كان معي مسدس ، أو بندقية ، لكنت أصدق عزيمة.

أمتدت يدي إلي زجاجة الفودكا ، وملأت كأسا آخر ، وتأنيت ... أرغب في تدخين لفافة تبغ ... عمل أي شيء غير الحملقة ، والتحديق في لا شيء ... كم هو صعب علي النفس توقع الموت بين لحظة ، وأخري ... لأنتظر ما تتمخض عنه الأحداث ، وليكن ما يكون ... و ...

فتح الباب فجأة ، و... جفلت ... انتزعت السكين من جرابه في آلية ... و... استويت واقفا.

كان جينا ... وجه متجهم حزين مغموم ... بادرته بصوت منفعل :

- لك أن تعلم أيها الرجل أني لم أقتل ألكسندر.

أشاح بوجهه المغموم عني ، وأشار بيده أن أجلس ... أرتمي بجسده علي المقعد المقابل ... امتدت يده إلي الكأس المملوءة ، وجرعها دفعة واحدة.

أخرج علبة لفائف تبغه ، وأشعل واحدة ليقول من خلال سحابة دخان :

- اهدأ يا بني ، وأجلس ... أعرف أنك لم تقتله ... إنه قدره ...

بحدة ملهوف متعطش لمعرفة خبر بادرته :

- كيف ؟ ... كيف يا جينا ؟ ... كيف ؟

أجابني بتأن في حزن :

- لقد قُطع التيار الكهربي أثناء صعوده بالمصعد مع طرد الكارتون ... ولما كان متخففا في ملابسه ، ودرجة الحرارة منخفضة بالثلاجة كما تعلم ... أراد المسكين أن يقفز من فوق إفريز المصعد إلي أسفل ليخرج من الثلاجة عن طريق السلم ، في نفس اللحظة التي أوصلوا التيار الكهربي فيها إلي المصعد ... اندفع المصعد به إلي أعلي ، وكان ما رأيته هناك.

انهرت جالسا علي المقعد ، وأنا أحمد الله علي نجاتي.

لم أستطع مواصلة الحديث مع جينا ... تقت إلي تدخين لفافة تبغ ، ولم أقو علي إخراج علبة لفائف التبغ ، والقداحة من جيبي ... إحساس مخز كأني خرقة قماش قديمة متهرئة ... سقطت المدية من يدي علي المنضدة ، ولفنا صمت مهيب.

قلت بعد فترة ، وأنا مرتاع :

- جينا ... إعطني لفافة تبغ من فضلك.

ألقي الرجل علبة لفائف تبغه تجاهي.

- أرجوك ... إشعل لي واحدة لو سمحت.

نظر إليّ ، وهاله ما حاق بي من وهن .

- لا عليك يا بني ، وإليك كأسا تعيد لك حيويتك.

- لا أريد ... فقط أرغب في لفافة تبغ ، وكوب ماء مثلوج.

قام جينا إلي ثلاجة صغيرة بركن الحجرة لم أنتبه لوجودها ، وأخرج زجاجة مياه معدنية ، وقدم لي كوبا شربته ، وطلبت آخر ... مد لي يده بلفافة تبغ مشتعلة ثم جلس.

- وماذا بعد يا جينا ؟ " تساءلت بصوت خافت "

- ليس هناك بعد يا نسر ... إن الطبيب يقوم بواجبه ، فقد مات ألكسندر ، وسيقرر القبطان بعد إبلاغ المسؤلين إن كنا سنعود إلي مورمانسك ، أو نسلم مالدينا من أسماك ، والجثة إلي الباخرة " الأم ".

... وتمنيت أن تعود بنا السفينة إلي مورمانسك.

إلي أستراخان

وافتنا إشارة لاسلكية ، فلم ننتظر الباخرة الأم الجامعة للأسماك ... غير القبطان خط سيره في عودة حزينة إلي مدينة البحر ، والسفن ، والأسماك ... إلي مورمانسك من حيث بدأنا رحلتنا.

انعدم الصخب إلاّ من هدير آلات الدفع ... عبارات مقتضبة هنا أو هناك ... تلاشت الابتسامات والضحكات ... كف جينا عن لغناته ، وانزوي بكابينته مع قواريره ، وأحزانه ... لم نلمح القبطان أو أحد مساعديه علي ظهر السفينة ... طقس جنائزي غير معهود من أعضاء أسرة نافيجاتر تعبيرا عن حزنهم لفقد أحد أفرادها.

غابت جثة ألكسندر بصندوق داخل ثلاجة الأسماك ... نفس الثلاجة التي لقي فيها مصرعه ... تحاشي الجميع ذكر اسمه ، أو الإشارة للحادث في مشاركة وجدانية شبه متفق عليها.

خلال جولة لي بلا هدف بين أرجاء السفينة ، لمحت سفيتلانا ، وزميلتها تجلسان إلي جوار قاعة الطعام تهمسان فيما بينهما ... تفحصت المرأة جيدا بعيني متمهل متأن بعيدا عن أي انفعال ... لم أجد فيها تلك المخلوقة البديعة التي ولهت إليها من خلال نافذة انحسرت عنها ستائرها ... رمقتاني بأعين متقدة تشع تساؤلا ، ربما في تقييم لأول شرقي أسمر يضع قدميه فوق ظهر سفينتهم ... سمعت ضحكة مكتومة ظننتها من سفيتلانا أثناء مروري أمامها لم ألتفت إليها ... وجدت أرتين يلزم مؤخرة السفينة بركن منها كأنما حزبه أمر استغلق عليه فتاه بين منعطفاته ... لم ألمح كوستا خلال جولتي ، وإن كان أمره لا يعنيني في كثير ... خمنت أنه مشغول بجمع حوائجه ، أو أنه بغرفة اللاسلكي ، وكلمات مقتضبة كبرقية لمن سيحل عليها في أستراخان ... ابتسامة ساخرة طفرت لترتعش علي شفتي.

اكتشفت أخيرا أن الهدف الغائب عني من جولتي ، هو رغبة في لقاء جينا ، والجلوس إليه ... ومع هذا ما قادتني قدماي في اتجاه كابينته.

اقتربت السفينة من مورمانسك ، ولمعت بنايات عالية انعكست عليها أشعة الشمس سبق أن ودعتنا...

تخيلت البنايات العالية نفسها قد سارعت بالاقتراب منا لاستقبال في عودة حزينة.

هدأت السفينة من سرعتها حتي توقفت وألقي الهلب في جلبة وقعقعة متلازمة ... اقترب زورق سريع أقل مجموعة من ضباط الشرطة ، ومعهم طبيب شرعي ، حيث كان القبطان ، وأحد مساعديه في استقبالهم ... تمت كل الإجراءات التي تلت وصولهم في جو كئيب.

لملمت حوائجي ، وأوسدتهم الحقيبة في غير ترتيب ... اكتناب عمني بدوري ، وشعور داخلي بكتني ، وكأني ضالع في موت ألكسندر ... حاولت جاهدا طرد هذا الشعور عني دون جدوى.

حاول كوستا التسرية عني في اقتراب حذر ... وجدتني في غني عن صحبته.

شعري طويل أكثر مما ينبغي ، وفي حاجة إلي تشذيب ... رائحة عرق نفاذة تفوح من جسدي ، وعلي الرغم منها لم أحاول الاقتراب من الحمام ... اكتشفت أن الجورب بقدمي أحداهما أسود والآخر أزرق ، ولم أهتم لهما.

رست الباخرة ، واستقرت إلي رصيف الميناء ... ودّعت جينا بحرارة ، ومن بعده القبطان وكل من صادفته من أفراد الطاقم ، وأسرة نافيجاتر لأغادر السفينة إلي غير رجعة ... و ... مرة أخري أطأ بقدمي أرض رصيف ميناء غادرته من شهرين .. تذكرت لودميلا ، وتلويحا بإيشارب أحمر من فوق نفس الرصيف ... أتراها مازالت تتذكر ابن الشرق الأسمر كما كانت تدعوني ؟ ... ما حدثتني نفسي للقائها ، ورؤيتها

، أو حتي مجرد محادثة بهاتف ... و ... نفضت يدي من مثل هذه الأفكار غير المجدية.

ابتعت تذكرة طائرة إلي لينتجراد ، وقضيت يوما واحدا بأحد فنادقها منتظرا موعد إقلاع طائرة إستراخان ... غادرت الفندق إلي المطار مباشرة ... لمحت كوستا بين جموع المسافرين ... حياني الرجل ، ولم أتبادل معه كلمة واحدة حتي وصلنا مطار أستراخان ... أقترب مني ، وسرنا متجاورين ، حتي إذا خرجنا من مبني المطار بادرني :

- والآن ... إلي أين يا فرعون ؟

احتضنته بحرارة مودعا ، وأنا أبتسم :

- لا تبتئس من أجلي يا كوستا ... سأجد طريقي فلا تهتم.

شد علي يدي بقوة ، ودس قصاصة ورق خمّنت أن بها عنوانه.

- سأظل طوال شهرين بأستراخان ، فلا تخجل إن لمست حاجة إلي صديق يا فرعون.

- وداعا كوستا.

مضي أمامي بخطوات وئيدة ، وتمهلت متعللا بتدخين لفافة تبغ حتي اختفي عن ناظري.

... قمت بعد فترة قصيرة لأدب بقدمي إلي مدينة لم أرها من قبل ، وإن سمعت عنها.

أعمال أخرى للمؤلف :

خماسية	١ـ ثغرة في أسفل الجدار	
	٢ـ عش الأغربة	الرواية الفائزة بمركز أول في مسابقة جائزة الأستاذ / إحسان عبد القدوس ٢٠٠٥.
	٣ـ الذباب الأبيض	فازت بمركز أول عن وسط ،وجنوب الصعيد – طبعت بمعرفة الهيئة العامة لقصور الثقافة – فرع أسوان
	٤ـ رجل المافيا صديقي	
	٥ـ مازالت الثغرة في أسفل الجدار	
	٦ـ وكان خوفي امرأة	
ثنائية	٧ـ نانا .. لم يكن هذا اسمها .. ولكن !!	
	٨ـ إيمى ... كان هذا اسمها.	
	٩ـ بدرا النُوكَا	
	١٠ـ ماذا لو غيرت فراشي " مجموعة قصصية "	

المشـــكاة

وسط أجواء متقلبة . . تتأرجح فوق موج الحياة الساخن، تسافر النسور دوماً فى آفاق الحلم لتصل إلى الحقيقة، تحمل فوق أجنحتها أمانة الكلمة التى تحقق رسالة الموهبة، ليصير الإبداع روح الحياة.

ومن هنا كانت المشكاة التى خرج منهج الجمعية منها فى مطلع فجر القرن الحادى والعشرين، لتكون "الكلمة أمانة . . والموهبة رسالة" . . تقدم سلسلة من الإصدارات هى ربيبة أقلام . . . "نسور الأدب".

الناشـــر

صدر حديثا من الجمعية

اســـــم الكتاب	المؤلف
عيون عارية	محمد الشحات محمد
امرأة الثلج	
قصص شاعرة	
سلاما حكيم العرب	
ما .. مات نوبل يا عرب	
البرادعى بين الوكالة والشعر	
زغاريد الألم	
قصائد مصورة (رسوم وأشعار)	
ديوان النسر الشاعر	
ومن النقد إلى الشعر نطير	
دوما نسافر للأفق	أحمد السرساوى
هل تهرب الشمس	
أوليات العشق	على رضوان
ألاعيب ممنوعة	حماد قرنى
عاشق بلا أوتار	زينب عبد الوهاب
العطر الهمجى	
قضية بنت القاضى	محمود إبراهيم يوسف
استراحة القلوب من نار الذنوب	خيرات عبد المنعم
الشوق والحنين لإمام المرسلين	
واقف على بابك	ربيع محروس زيادة
دواوين الشاعر محمد على عبد العال	محمد على عبد العال
خيرات .. تاريخ	نخبة من الأدباء
ندى القلوب المتعبة	ندى إمام عبد الواحد
الذباب الأبيض	محمد " التركى " توفيق

فهـــــرس

إلى اللقاء

مع إصدار جديد

في سلسلة

"نسور الأدب"

رقـــــم الإيـــداع بدار الكتب

٢٠٠٨ / ٤٣٨٢